إعداد: زكي الميلاد

تعارف الحضارات

نادية مصطفى
طاهر عبد مسلم
أحمد البغدادي
محمد عبد الجبار
رسول محمد رسول
شمس الدين الكيلاني
إدريس هاني
حسن آل حمادة
محمد مراح
فاروق اسليم
حسن عزوزي

دار الفكر
آفاق معرفة متجددة
www.fikr.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تعارف الحضارات

تعارف الحضارات /إعداد زكـي الميـلاد .- دمشـق: دار الفكر، ٢٠٠٦ .- ٢٢٤ص: ٢٠سم .

ردمك: 1-59239-510-4

١-٣٠٣,٤ م ي ل ت ٢- العنوان ٤-الميلاد

مكتبة الأسد

تعارف الحضارات

إعداد: زكي الميلاد

نادية مصطفى — إدريس هاني — محمد عبد الجبار
أحمد البغدادي — محمد مراح — شمس الدين الكيلاني
رسول محمد رسول — طاهر عبد مسلم — حسن آل حمادة
فاروق سليم — حسن عزوزي

دار الفكر

آفاق معرفة متجدّدة

مالك بن نبي
مشروع حضاري فعال
٢٠٠٦

الطبعة الأولى

المحرم ١٤٢٧هـ

كانون الثاني(يناير) ٢٠٠٦م

الرقم الاصطلاحي : ١٩١٨,٠٣١

الرقم الدولي: ISBN: 1-59239-510-4

الرقم الموضوعي: مشكلات الحضارة

الموضوع: ٣٠١

العنوان: تعارف الحضارات

إعداد: زكي الميلاد

التنفيذ الطباعي: دار الفكر - دمشق

عدد الصفحات: ٢٢٤ ص

قياس الصفحة: ١٤×٢٠ سم

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من

دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد

ص.ب: (٩٦٢) دمشق-سورية

فاكس: ٢٢٣٩٧١٦

هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ - ٢٢١١١٦٦

http://www.fikr.com/

e-mail: info@fikr.com

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ
شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾

الحجرات ٤٩/ ١٣

المحتوى

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٩
تعارف الحضارات.. فكرةً وتطوراً ومصيراً زكي الميلاد	١١
من حوار الحضارات إلى تعارف الحضارات زكي الميلاد	٣٣
الحلقة المفقودة ما قبل تعارف الحضارات مأزم الحداثة وبؤس آلية التثاقف إدريس هاني	٦٦
نحو رؤية إسلامية لتعارف الحضارات محمد مراح	٧٧
تعارف الحضارات من أطروحات الاستشراق إلى التمركز الإعلامي والدعاية المضادة طاهر عبد مسلم	١١٥

شغف الرحالة العرب بالتعرف على أوروبة
التعارف سبيلاً لحوار الحضارات ١٤٢

شمس الدين الكيلاني

تعارف الحضارات ١٦٨

د. فاروق اسليم

التعارف بين الحضارات ١٧٦

محمد عبد الجبار

تعارف الحضارات ١٧٩

الدكتورة نادية محمود مصطفى

تعارف الحضارات في ضوء متغيرات العالم الجديدة ١٨٣

الدكتور رسول محمد رسول

تعارف الحضارات ١٩١

الدكتور أحمد البغدادي

من أجل تكريس مفهوم تعارف الحضارات ١٩٤

الدكتور حسن عزوزي

تعارف الحضارات ٢٠٣

زكي الميلاد

حوار حول أطروحة تعارف الحضارات ٢٠٨

أجرى الحوار: الأستاذ حسن آل حمادة

مقدمة

يحاول هذا الكتاب أن يقدم تعريفاً لفكرة تعارف الحضارات، وهي فكرة جديدة وخلاقة، تنتمي إلى الفضاء المعرفي الإسلامي، وتتحدد في مجال العلاقات بين الحضارات.

وليس من غاية هذه الفكرة أن توسع دائرة الجدل والسجال الواسع والمتراكم حول مقولتي صدام الحضارات وحوار الحضارات، الجدل والسجال الذي لم ينقطع أو يتوقف على مستوى العالم، وبين ثقافاته وهوياته وأديانه المتعددة والمتنوعة. وإنما هي محاولة لتطوير مستويات الفهم في النظر إلى عالم الحضارات، والسعي لاكتشاف آفاق جديدة أو غائبة تساهم في تجديد العلاقات بين الحضارات، وتوسع من دائرة التواصل فيما بينها. والتأكيد على ضرورة بناء هذه العلاقات على أساس المعرفة المتبادلة، ومن خلال بناء جسور التعارف، لإزالة كافة صور الجهل، والتخلص من رواسب وإشكاليات القطيعة.

والحكمة من هذه الفكرة أنها تنطلق من قاعدة أن تعدد الحضارات أو انبعاث حضارات جديدة لا يفترض أن يؤدي إلى صدام بين

الحضارات، ولا ينبغي أن يفهم هذا التعدد أو يفسر على أساس التصادم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أنه بدون التعارف لا يتحقق الحوار ولا يتطور ويتقدم كذلك.

كما يشرح هذا الكتاب من أين بدأت فكرة تعارف الحضارات؟ وكيف نمت وتطورت؟ وبماذا تتميز عن المقولات الأخرى؟ وإلى أين وصلت؟ وما هو مصيرها ومستقبلها؟ وماذا يمكن أن تقدم في مجال العلاقات بين الحضارات؟.

أما ما يريد أن يؤكده هذا الكتاب فهو أن مفهوم تعارف الحضارات قد تجاوز مرحلة بناء المفهوم، واكتسب قوة التماسك والتحديد، ودخل حيز المجال التداولي، وبات معروفاً في حقل الدراسات الحضارية، وفي مجال العلاقات بين الحضارات بصورة خاصة. وإن المشاركات العديدة والمتعددة التي يضمها هذا الكتاب تؤكد على ذلك.

وبدوري أشكر جميع المشاركين في هذا الكتاب، وأقدر وأثمن لهم مشاركاتهم، والتي من دونها ما كان بالإمكان إنجاز هذا العمل وبهذه الصورة.

زكي الميلاد

تعارف الحضارات ..
فكرة وتطوراً ومصيراً

زكي الميلاد

- ١ -

أتذكر أنني كنت شغوفاً بفكرة الحضارة منذ وقت مبكر؛ منذ بدأت علاقتي بالثقافة، التي جاءت بعد التحول من مطالعة قصص الأطفال القصيرة والطويلة في سنوات المرحلة الابتدائية من الدراسة، إلى مطالعة الكتب الثقافية والدينية مع بداية المرحلة المتوسطة أو الإعدادية. وتضاعف هذا الاهتمام وتركز وتعمق بعد التحاقي بدراسة العلوم الإسلامية في إيران مع بداية حقبة الثمانينيات من القرن العشرين.

فقد كان يستهويني للمطالعة كل كتاب يتحدث عن الحضارة فكرة أو تاريخاً، ويكفي أن يكون اسم الحضارة موجوداً في عنوان الكتاب حتى أشعر بجاذبية نحوه. ولم أكن أعلم حينذاك على وجه التحديد ما هو سر هذا التعلق والانجذاب، هل هو اسم الحضارة، الذي له جاذبيته بالطبع؟ أم هو مجرد تعلق نفسي لا غير، يفتقد إلى الوعي والإدراك؟.

والذي أذكره في هذا الشأن هو أنني كنت أتصور أن المؤلفات التي تتحدث عن الحضارة، هي مؤلفات جادة، أو أن لها طابعاً جاداً، وتنتمي إلى منطق التواصل مع العصر.

وأول كتاب تعرفت عليه في هذا المجال، ومن خارج الدراسات الإسلامية، واستوقف انتباهي في ذلك الوقت، هو كتاب (الحضارة) للدكتور حسين مؤنس، والذي كان أول كتاب صدر من سلسلة كتاب عالم المعرفة الكويتية، التي بدأت بالصدور عام ١٩٧٨م. ومن داخل الدراسات الإسلامية كتاب (الفكر الإسلامي مواجهة حضارية) للسيد محمد تقي المدرسي، الذي حاول أن يحدد مهمة الفكر الإسلامي المعاصر في هذه المواجهة الحضارية مع الأفكار والفلسفات والأيديولوجيات الغربية والشرقية والمتصادمة مع الفكر الإسلامي. واعتبر السيد المدرسي أن مصير هذه المواجهة تقرره جدارة الفكرة الحضارية بالبقاء، فبقدر ما تكون هذه الفكرة مليئة بركائز التقدم، وبما تبعثه في الإنسان من الإيمان والمعرفة، سيكون تقدم الأمة وانتصارها.

وتواصل هذا الاهتمام ولم ينقطع بعد التحاقي بدراسة العلوم الإسلامية، حيث صدرت في ذلك الوقت سلسلة كتب قيمة جداً بعنوان (نحو حضارة إسلامية) وكانت توزع علينا وننصح بقراءتها. وقد عالجت هذه السلسلة قضايا وأفكاراً إسلامية بروح عصرية.

وفكرة الحضارة هي التي قادتني إلى مالك بن نبي الذي يعتبر من أكثر المفكرين الإسلاميين المعاصرين اشتغالاً واهتماماً بفكرة الحضارة. وأول ما استوقفني ولفت انتباهي حين الاقتراب من مؤلفات بن نبي فكرته التي افتتح بها كتابه (شروط النهضة) وهي: «إن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها»[1]. وقد شدتني هذه الفكرة إلى أفكار بن نبي، وهي بالمناسبة من أكثر أفكاره شيوعاً وتداولاً في الكتابات التي تتناول المسألة الحضارية.

وازداد هذا الاقتراب حين شرح بن نبي علاقته بفكرة الحضارة بقوله: «إن المشكلة التي استقطبت تفكيري واهتمامي منذ أكثر من ربع قرن وحتى الآن هي مشكلة الحضارة.. فالمشكل الرئيسي، بل أم المشكلات التي يواجهها العالم الإسلامي هي مشكلة الحضارة، وكيف تدخل الشعوب الإسلامية في دورة حضارية جديدة، وكيف تعود الشعوب الإسلامية التي خرجت من حلبة التاريخ لدورة حضارية جديدة، إذا سلمنا بهذه الحقائق يبقى علينا أن نفكر في مصير العالم الإسلامي. وكيف يمكن لنا الدخول في دورة حضارية جديدة.

---

(١) شروط النهضة. مالك بن نبي، ترجمة: عبد الصبور شاهين وعمر كامل مسقاوي، دمشق: دار الفكر، ١٩٧٩م، ص١٩.

هذه القضية باختصار هي التي وجهت لها كل مجهوداتي منذ ثلاثين سنة»[١].

وهكذا تواصل الاهتمام بفكرة الحضارة، وظل يتراكم عن طريق المطالعة والبحث، ولم يتوقف أو ينقطع منذ ذلك إلى اليوم، وقد التفت بعض الأصدقاء إلى هذا المستوى من التعلق بفكرة الحضارة، وتحدث في أحد المرات الصديق الشيخ محمد العليوات وقال عني إنني لا أستطيع أن أتحدث بحديث من دون الإشارة إلى ذكر الحضارة.

والمقصود من هذا السرد أن الاهتمام بفكرة الحضارة لم يكن حديثاً وطارئاً، وإنما كان يمثل شغفاً واهتماماً منذ وقت مبكر.

- ٢ -

في تلك السنوات اطلعت على كتاب روجيه غارودي «من أجل حوار بين الحضارات» الصادر عام ١٩٧٧م، وقد وجدته كتاباً هاماً وثرياً. وما إن أنهيت مطالعته حتى شعرت بالحاجة إلى العودة إليه مرة أخرى، لكونه ثرياً من جهة، ولكوني محباً لهذا الموضوع من جهة أخرى. فقد كشف غارودي في هذا الكتاب عن ثقافته الواسعة،

(١) فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي. سليمان الخطيب، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٩٩٣م، ص٣٧. نقلاً عن حوار مع مالك بن نبي، نشرته مجلة الشبان المسلمين المصرية، العدد ١٧١، ربيع الأول ١٣٩١هـ، أيار (مايو) ١٩٧١م، ص١٦ - ١٧.

وخبرته النقدية، وانفتاحه على الثقافات غير الأوروبية. وكيف أنه كان جاداً في دعوته لحوار الحضارات، ومتحمساً لها، ومدافعاً عنها.

ومنذ أن تعرفت على هذا الكتاب احتفظت بصلة وصل به، وبمؤلفه أيضاً، حيث تابعته في كتاباته ومؤلفاته الأخرى، خصوصاً تلك التي صدرت مع بداية الثمانينيات من القرن الماضي، وجاءت قبيل تحوله الفكري إلى الإسلام وبعده، وعبرت عن تجربته الفكرية الجديدة، وكانت مواكبة لتحولات العلاقة بين الإسلام والغرب.

وخلال هذه الفترة كنت معجباً بفكرة حوار الحضارات، وبالطريقة التي شرحها غارودي في كتابه المذكور. وبقيت أرجع إليها تارة؛ بالكتابة عنها أو عن مجالها وموضوعها، وتارة بالحديث عنها، دون الاقتراب من التعامل النقدي معها.

ومع أن فكرة حوار الحضارات كانت فكرة بديعة وخلاقة، أو هكذا كنت أنظر إليها، فإنه لم يكن لها صدى واهتمام واضح ولافت في العالم العربي. فلم تظهر كتابات تؤكد على هذا الاهتمام، وتلفت النظر إلى أهمية التواصل والتثاقف مع تلك الفكرة. ولهذا لم يكن لدينا في العالم العربي تراكم مهم حول فكرة حوار الحضارات، ولا حتى إدراك عميق أو ناضج حولها.

ومن جانب آخر فإن هذه الفكرة كادت تتلاشى أساساً، وتنتهي ويلفها النسيان، وذلك لعوامل وأسباب منها:

أولاً: أن هذه الفكرة لم تستطع أن تحرك جدلاً حولها، أو تخلق فضولاً وشغفاً معرفياً نحوها.

ثانياً: أنها لم تتصل بسياق موضوعي على صورة حدث أو قضية، بحيث يلفت النظر إلى تلك الفكرة، ويؤكد الاهتمام بها أو الحاجة إليها، أو يوفر لها مناخاً تتحرك فيه ومن خلاله، فالأفكار غالباً ما تؤثر وتنتشر بسبب السياق الذي تتصل به، وتتلازم معه.

ثالثاً: أن غارودي نفسه لم يواصل تطوير وتجديد فكرته عن حوار الحضارات. حاول مرة أن يؤسس مركزاً لحوار الحضارات، ويستعيد دور قرطبة ومكانتها في التواصل الحضاري بين الشرق والغرب، ولم ينجح في ذلك. وتحول لاحقاً من الاهتمام بحوار الحضارات إلى الاهتمام بحوار الإسلام والغرب. ومنذ فترة طويلة لم يعد غارودي يذكر بفكرته تلك، ويلفت النظر إليها، أو يظهر التمسك بها، حتى بعد إعلان الأمم المتحدة سنة ٢٠٠١م سنةً دولية لحوار الحضارات. وفي هذه السنة (٢٠٠١م) التي انخرط العالم فيها بالحديث عن حوار الحضارات نادراً ما كان يأتي الحديث عن غارودي، مع أنه قدم - في تقديري - أنضج رؤية حول حوار الحضارات.

رابعاً: أن غارودي أراد من هذه الفكرة مخاطبة الغرب بصورة أساسية، وليس مخاطبة العالم أو الحضارات الأخرى. فهي ناظرة إلى الغرب ومتوجهة إليه، وتنتمي إلى فضائه الثقافي ونظرياته النقدية. ولم تلق هذه الفكرة إصغاء أو استجابة هناك، ولم تحرك ساكناً أو تخلق تموجاً، أو حتى تثير نقاشاً نقدياً مستفيضاً.

لهذه الأسباب تراجعت فكرة حوار الحضارات ونسيها العالم. ولم يعد هناك من يتحدث عنها، أو يأتي على ذكرها إلا نادراً، وهؤلاء - على قلتهم - غالباً ما يوجهونها في إطار نقد الغرب وتجربته الحضارية، وتمسكه الشديد بمفهوم المركزية الأوروبية، حيث أصبح يتنكر للحضارات الأخرى غير الأوروبية، ولا يعترف إلا بحضارته، أو هكذا يظهر في نظر العالم غير الأوروبي. وكأن التاريخ الإنساني لم يشهد حضارة عظيمة إلا حضارة الغرب. وفي هذا النطاق جاء دفاع الشاعر والرئيس السنغالي السابق سنغور عن الحضارة الأفريقية التي يتجاهلها الغرب والعالم أيضاً. إلى جانب دفاع بعض المفكرين العرب والمسلمين عن الحضارة الإسلامية، وما قدمته من إسهامات علمية وحضارية عظيمة وكان الغرب أكبر المستفيدين منها، بشهادة علمائه ومفكريه ومستشرقيه.

- ٣ -

حينما ظهرت مقولة صدام الحضارات لصمويل هنتنغتون سنة ١٩٩٣م، تابعتها باهتمام وكنت حريصاً على مطالعة ما يكتب وينشر عنها، وهي المقولة التي تحولت إلى واحدة من أكثر المقولات نقاشاً وسجالاً وتداولاً بين مختلف ثقافات العالم. وهذا المستوى الواسع من الاهتمام بهذه المقولة لأنها ارتبطت بسياق يلفت الانتباه إليها، حيث جاءت في مرحلة كان العالم يتحدث فيها عن نهاية الحرب الباردة التي قسمت العالم إلى

معسكرين متصادمين أيديولوجياً، ومتسابقين في مجال التسلح والردع والتوازن النووي، لهذا هيمنت على العالم حالة من التفاؤل، وفي ظل هذه الأجواء، جاءت مقولة صدام الحضارات، وكأنها تبشر بعصر أشد خطورة من عصر الحرب الباردة، وبانقسامات حادة على مستوى الحضارات، فبعثت حالة من التشاؤم. كما أن الطبيعة التحريضية لهذه المقولة ساهمت أيضاً في رفع وتيرة مستوى الاهتمام بها، إلى جانب عنصر آخر هو تركيبة تلك المقولة وبنيتها.

وهذا الحضور الواسع لهذه المقولة وفر سياقاً لتجديد الانتباه والاهتمام بفكرة حوار الحضارات، وهو السياق الذي افتقدته في زمنها الأول. ومع هذا السياق تجدد الاهتمام - وبصورة كبيرة - بمقولة حوار الحضارات باعتبارها المقولة التي تقوم بدور النقيض والمقابل لمقولة صدام الحضارات.

وفي ظل هذا السجال والتقابل بين مقولتي صدام الحضارات وحوار الحضارات، وحضورهما الواسع والمكثف في الأدبيات والكتابات والإعلاميات، توقفت متأملاً هذه المرة، وفاحصاً لمقولة حوار الحضارات وكيف نتصور إمكانية تحاور الحضارات؟ وهل إن الحضارات تتحاور فعلاً؟ وهل هناك واقع فعلي لحوار الحضارات في عالم اليوم؟.

كما بقيت ناظراً ومتأملاً أمام سؤال: هل توجد فكرة أو نظرية

إسلامية في هذا الشأن؟ وبعد زمن من النظر والبحث والتفكير وجدت أن بالإمكان التوصل إلى فكرة إسلامية في هذا المجال.

والحقيقة أنني كنت مهموماً بهذه القضية، ولم أتوقف عن التفكير بها، وبقيت متمسكاً بضرورة التوصل إلى شيء في هذا الأمر. إلى أن اقتربت من الآية الثالثة عشرة في سورة الحجرات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٤٩/١٣]. وقد توقفت كثيراً أمام هذه الآية التي اصطلحت عليها لاحقاً بآية التعارف، ووجدت فيها ما كنت أبحث عنه. فقد جاءت هذه الآية بمفهوم التعارف ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾، وخاطبت الناس كافة بهذا المفهوم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وخاطبتهم بهذا المفهوم حينما جعلهم الله سبحانه وتعالى شعوباً وقبائل ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ﴾، والمقصود العام من الشعوب والقبائل التجمعات والمجتمعات الصغيرة والكبيرة، ويدخل في هذا المعنى الأمم والحضارات بحسب اصطلاحاتنا الحديثة، أي إن المقصود بالتعارف هنا ليس الأفراد وإنما التجمعات والمجتمعات، لهذا جاز لنا استعمال هذا المفهوم على مستوى الحضارات. ومن هنا تبلور مفهوم (تعارف الحضارات)، وترسخت قناعتي به، وبقيت متحمساً له، ومدافعاً عنه، وسعيت للتعريف والتبشير به، من أجل اختباره، وجسّ النبض حوله، ومعرفة اتجاهات الرأي تجاهه.

- ٤ -

في صيف ١٩٩٧م أنجزت أول عمل حول تعارف الحضارات على صورة بحث نشر في مجلة الكلمة، العدد السادس عشر، شرحت فيه قيمة هذا المفهوم وتميزه، واختلافه عن مفهومي صدام الحضارات وحوار الحضارات، واتصاله بالمنبع القرآني. كما شرحت فيه طبيعة مكونات هذا المفهوم وأبعاده ومقاصده. وختمت البحث بالدعوة لأن يأخذ هذا المفهوم مكانته من الجدل والنقاش الدائر على نطاق واسع حول أنماط وصور العلاقات بين الحضارات، والتأكيد على ضرورة أن نتعامل بثقة مع الأفكار التي نبدعها، ونعطيها من الأهمية ما تستحق، لا أن نكون مجرد مسحورين ومنفعلين بالأفكار التي تأتي لنا جاهزة من الخارج، ومن الغرب بشكل خاص.

وقد اكتسب هذا المفهوم في وقته قدراً من التفاعل والاستحسان والاهتمام عند الذين اطلعوا عليه، أو الذين حدثتهم عنه من الأصدقاء أو من المهتمين والباحثين في هذا المجال. ففي (أيلول) سبتمبر ١٩٩٧م دعيت للمشاركة في مؤتمر حول (مستقبل الإسلاميين بين التسامح والاستبداد) نظمه في لندن المنبر الدولي للحوار الإسلامي، وحملت معي بعض النسخ من بحث (تعارف الحضارات)، وأعطيتها لبعض المهتمين هناك، وتناقشت معهم حوله، وكان من هؤلاء الأستاذ محمد عبد الجبار الذي سمعت منه استحساناً حول هذا المفهوم، وفي وقت لاحق تطرق إليه في مقالة

طويلة نشرها بصحيفة الحياة اللندنية كانت بعنوان (مراحل العلاقات بين الحضارات.. مشروع رؤية قرآنية بديلة)[١]، تحدث فيها عن أربع مراحل في العلاقة بين الحضارات، وأطلق على المرحلة الثانية مرحلة التعارف بين الحضارات. واعتبر «أن التعارف ينفعنا في جانبين، أولاً يساعدنا في فهم ذواتنا أكثر فأكثر، لأن معرفة الآخر تلفت نظرنا إلى ما عندنا وإلى ما ليس عندنا، وهذا يعرفنا بدوره على عناصر ضعفنا، وبالتالي يساعدنا في الاستفادة من الجانب الثاني، وهو معرفة ما لدى الآخر من قوة وضعف».

وعندما اطلع الدكتور محمد علي آذرشب على هذا البحث قام بإعادة نشره في مجلة (رسالة التقريب) التي كان يرأس تحريرها آنذاك، ويصدرها المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية في طهران، ونشر في العدد الرابع والعشرين، سنة ١٩٩٩م - ١٤٢٠هـ.

وفي تلك الفترة أيضاً طلبت من الأستاذ إدريس هاني أن يشارك بمناقشة حول هذا المفهوم، فأعد مناقشة بعنوان (الحلقة المفقودة ما قبل تعارف الحضارات.. مأزم الحداثة وبؤس آلية التثاقف) نشرت في باب المناقشات بمجلة الكلمة، العدد الثالث والعشرون، ربيع ١٩٩٩م - ١٤٢٠هـ.

---

(١) نشرت هذه المقالة في العدد ١٢٧٠٠، الأحد ٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٧م.

وفي العام نفسه ١٩٩٩م أصدرت كتاباً بعنوان (المسألة الحضارية.. كيف نبتكر مستقبلنا في عالم متغير) ضمّنته بحث تعارف الحضارات، وقد وجدت فيما بعد أن معظم المراجعات والمتابعات التي نشرت حول الكتاب ركزت وباهتمام كبير على مفهوم تعارف الحضارات، وكأنه المفهوم الجديد واللافت في هذا الكتاب. فالمراجعة التي أنجزها الأستاذ تركي علي الربيعو ونشرها بصحيفة الحياة، كانت بعنوان (تعارف الحضارات والبحث عن طريق ثالث)[١].

وتوقف أمام هذا المفهوم أيضاً الدكتور رسول محمد رسول في مراجعة له حول هذا الكتاب نشرها بصحيفة الزمان اللندنية في ١٧ شباط (فبراير) ٢٠٠٠م، حيث اعتبر أن «تعارف الحضارات ليس مجرد تعبير فحسب وإنما هو أكثر من ذلك. إنه مشروع حضاري يسعى الميلاد إلى وضع أسسه وبناء تكوينه الفكري بالاستناد إلى المرجعية الإسلامية. كما يجد الميلاد في مصطلح التعارف المخرَجَ المفاهيمي العربي والإسلامي المعبر عن خصوصيتنا».

وأما الأستاذ عبد الواحد علواني فقد كانت رؤيته لهذا الكتاب أنه يرمي إلى طرح رؤية إسلامية لمسألة العلاقة بين الحضارات، ويجعل من التعارف أساساً لهذه العلاقة. وحين يصل إلى فصل تعارف الحضارات يرى الأستاذ علواني أنه مع هذا الفصل تنكشف غاية

(١) الحياة. لندن، العدد ١٣١٧٩، ٨ نيسان (أبريل) ١٩٩٩م.

الكتاب كل الانكشاف، وبعد أن يتتبع مكونات هذا الفصل، يعقب على ذلك بقوله: «وحقيقة يظهر الباحث الميلاد قدرة طيبة في استخلاص نظرية يمكن تطويرها، وهي أكثر إنصافاً وعدلاً وفاعلية ووئاماً، وتتيح سبيلاً نحو فهم أفضل يتيح بناء علاقات سوية بين الأمم والشعوب. وهذه الرؤية تستحق بنظري المزيد من الجهود المعرفية، والتداول الفكري في سبيل بلورة مشروع حضاري صالح، يمهد للقيام بتواصل متميز. بل يمكن عقد المزيد من الحلقات والندوات البحثية على مستويات مختلفة في سبيل اكتناه الرؤية الأكثر قرباً من الإنسان بشكل عام، وبما ينسجم مع رسالة الإسلام الموجهة إلى العالم بأكمله. وهذا ما يتفق مع ما يقوله الميلاد في سياق بحثه، إذ يطالب بالاهتمام بالأفكار المنتجة محلياً، وعدم الاكتفاء بالانبهار بما يأتي من الخارج، ومن الغرب تحديدا»[(١)].

وكتب عن هذا المفهوم كذلك الدكتور أحمد البغدادي أستاذ العلوم السياسية بجامعة الكويت حيث نشر مقالة في صحيفة الاتحاد الإماراتية بعنوان (تعارف الحضارات)[(٢)] افتتحها بقوله: «في كتابه الممتع (المسألة الحضارية) يطرح الأستاذ زكي الميلاد مصطلحاً جديداً انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ

---

(١) نشرت هذه المراجعة في مجلة الكلمة، العدد ٢٩، السنة السابعة، خريف ٢٠٠٠م - ١٤٢١هـ، ص ١١٨ - ١٢٥.

(٢) نشرت هذه المقالة بتاريخ ٥ آذار (مارس) ٢٠٠٢.

أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾. ويرى الأستاذ زكي أن هذا التعارف أمر ضروري يجب تحققه قبل مسألة حوار الحضارات التي يدعو إليها المفكر المسلم روجيه غارودي، وكذلك الكثيرون من الأوروبيينْ والمسلمين رداً على مقولة صمويل هنتنغتون حول صدام الحضارات».

- ٥ -

إلى جانب تلك الكتابات والمراجعات، شهد مفهوم تعارف الحضارات حضوراً في بعض الندوات والمؤتمرات الفكرية والثقافية التي عقدت في العالم العربي وتناولت موضوع العولمة وحوار الحضارات. فقد شارك الدكتور سيف الدين عبد الفتاح أستاذ النظرية السياسية بجامعة القاهرة، بورقة بحث حول تعارف الحضارات قدمها لندوة (الإسلام والعولمة) التي نظمتها كلية دار العلوم بجامعة القاهرة، وعقدت في أيار (مايو) ٢٠٠٠م.

وفي ندوة (كيف ندخل سنة حوار الحضارات؟) التي نظمها مركز الدراسات الثقافية الإيرانية العربية، وعقدت بدمشق في ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٠٠م، في هذه الندوة قدمت الدكتورة نادية محمود مصطفى أستاذة العلاقات الدولية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، والمشرفة على برنامج حوار الحضارات في جامعة القاهرة أيضاً، ورقة بحث بعنوان (حوار الحضارات في ضوء العلاقات الدولية الراهنة)، تحدثت فيها عن محورين أساسيين: المحور

الأول يدور حول خصائص العلاقات الدولية الراهنة وموقع العلاقة بين الحضارات منها. والمحور الثاني يدور حول موقع الأمة الإسلامية في النظام الدولي، البعد الثقافي الحضاري وتحديات الوضع الراهن للأمة، أين حوار الحضارات؟. في هذا المحور تساءلت الدكتورة مصطفى: هل هناك حوار حضارات؟ وهل حوار الحضارات أمر ممكن؟ ووجدت أن الخلل في ميزان القوى الاقتصادية والسياسية بين العالمين الإسلامي والغربي لا يسمح بإمكانية حوار حضاري بمعناه الحقيقي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن التصور الإسلامي لا يكرس الصراع كقانون تاريخي مطلق. والنتيجة التي تريد أن تصل إليها الدكتورة مصطفى هي: (لماذا لا نقول إذن أن مفهومنا من الدائرة الإسلامية عن نمط العلاقة بين الحضارات هو تعارف الحضارات، وأنا هنا استخدم ذلك المصطلح الذي قدمه بعض الأساتذة المفكرين مثل الأستاذ زكي الميلاد، وكذلك بعض الأساتذة الأكاديميين مثل الدكتور سيف الدين عبد الفتاح... وإن استخدام تعارف الحضارات وليس حوارها أو صراعها يمثل استجابة إيجابية، وليس مجرد رد فعل أثارته أطروحات صراع الحضارات، تلك الأطروحات التي جاءت من خارج الدائرة الإسلامية، تعبيراً عن الاهتمامات الفكرية والعملية في الغرب».

وقد عقب على هذا البحث الدكتور محمد الأرناؤوط مدير بيت الحكمة في جامعة آل البيت بالأردن، في ورقة مكتوبة، ووجد أن

الدكتورة نادية مصطفى ترفض ما هو مطروح من تسميات حول العلاقات بين الحضارات، وتدعو إلى خيار آخر هو تعارف الحضارات. وحين يحاول الدكتور الأرناؤوط توضيح الهدف من مقولة تعارف الحضارات كما تراه الدكتورة مصطفى، فإن هذا الهدف حسب رأيه يتمثل في أمرين:

١- يمهد السبيل للتجديد الحضاري لدى المسلمين.

٢- يمهد لمشاركة الفكر الإسلامي في عملية التجديد الحضاري العالمية.

أما النقاش الذي يثيره الدكتور الأرناؤوط حول هذا المفهوم، ويطرحه بصيغة التساؤل وحسب رأيه فهو: «طالما أن الدكتورة مصطفى تتحفظ بحق على حوار الحضارات الذي تعتبره مبادرة غربية في الأساس، لأن الخلل في ميزان القوى الاقتصادية والسياسية بين الطرفين لا يسمح بإمكانية الحوار المتوازن، فالسؤال هنا: أليس هذا الخلل نفسه يشمل بدوره تعارف الحضارات؟ وما هي مصلحة الطرف الآخر أن يقبل على هذا الخيار الذي يريد منه أصحابه أن يؤدي إلى مشاركة الفكر الإسلامي في عملية التجديد الحضاري العالمية؟». ويكتفي الدكتور الأرناؤوط بهذا السؤال دون أن يعقب أو يعلق عليه.

وقد جرت في هذه الجلسة وغيرها من جلسات هذه الندوة مناقشات مستفيضة حول فكرة تعارف الحضارات ومفهومها، حيث

كنت حاضراً في هذه الندوة ومشاركاً فيها. حتى إن صحيفة البعث السورية عنونت تغطيتها لهذه الندوة بعنوان (ندوة حوار الحضارات.. حوار أم تعارف).

وفي بداية عام ٢٠٠١م وصلتني دعوة من مكتبة الملك عبد العزيز العامة في السعودية للمشاركة في ندوة دولية حول الإسلام وحوار الحضارات، وأخبرتهم في وقتها عن أطروحتي في تعارف الحضارات وأني سوف أكتب عنها فرحبوا بذلك، فتقدمت لهم ببحث شاركت به في الندوة، وكان بعنوان (من حوار الحضارات إلى تعارف الحضارات) وهو البحث المنشور في هذا الكتاب. وبسبب أحداث ١١ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١م، تأجل انعقاد الندوة من موعدها المقرر في تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٠١م إلى آذار (مارس) ٢٠٠٢م.

وفي تلك الفترة نشر الدكتور سمير عبد الحميد إبراهيم - من مصر - أستاذ اللغات الشرقية وآدابها بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، مقالة في مجلة أحوال المعرفة، الصادرة عن مكتبة الملك عبد العزيز العامة، حملت هذه المقالة عنوان (محمد إقبال وحوار الحضارات .. الحضارات بين التعارف والتصادم)[1]، تبنى فيها مقولة تعارف الحضارات، وقدمها على المقولات الأخرى، بما في ذلك مقولة حوار الحضارات. واعتبر أن إقبال لا يدعو إلى حوار بقدر

---

(١) نشرت هذه المقالة في العدد ٢٤، السنة السادسة، محرم ١٤٢٣هـ، آذار (مارس) ٢٠٠٢م، ص ٢٩.

ما يدعو إلى تعارف. وختم مقالته في الأسطر الأخيرة بقوله: «رحم الله إقبالاً، فكأنه يطل اليوم علينا بفكره وبفلسفته، يشارك فيما يطلق عليه اليوم حوار الحضارات، وهو يأمل أن يتحول المصطلح إلى تعارف الحضارات». مع العلم أن الدكتور سمير عبد الحميد كان عضواً في اللجنة التحضيرية لندوة (الإسلام وحوار الحضارات) وفي ظني أنه تعرف على مفهوم تعارف الحضارات من البحث الذي رفعته للندوة، ولعله اطلع عليه محكماً له، وقاده هذا الاطلاع إلى استحسان هذا المفهوم.

وقد تُرجم هذا البحث إلى اللغة الإنجليزية، بعد نشره في مجلة الكلمة، ووزع في الولايات المتحدة الأمريكية، كما أخبرني بذلك الأستاذ عبد الله القريش المقيم هناك.

- ٦ -

على مستوى الحوارات كان لمفهوم (تعارف الحضارات) نصيب من الحضور والتداول. ففي أواخر عام ١٩٩٧م هاتفني الأستاذ فايز سارة وكان مديراً لمكتب صحيفة الراية القطرية بدمشق، وطلب مني إجراء حوار حول إشكاليات العلاقة بين ثقافة الإسلام وثقافة الغرب في ظل التجاذب بين مقولتي صدام الحضارات في ثقافة الغرب، وحوار الحضارات في ثقافة الإسلام. وفي هذا النطاق جاء سؤال: كيف ترى الموازي الإسلامي لمقولة صدام الحضارات، هل هو حوار الحضارات ولماذا؟ فكان جوابي: «إن العالم بحاجة إلى مرحلة ما

قبل الحوار، وهي التي أعبر عنها بمقولة (تعارف الحضارات)، المقولة التي تعبر عن الرؤية الإسلامية في النظر إلى الحضارات.. ومن خلال تعارف الحضارات نستطيع أن نعالج مسببات الصدام بين الحضارات، ونمضي إلى حوار الحضارات». وعندما نشر الحوار في بداية كانون الثاني (يناير) ١٩٩٨م كان العنوان الرئيسي له هو «المطلوب تعارف الحضارات، وليس صدامها، طريقاً للحوار».

وفي بداية عام ٢٠٠٣م طلب الأستاذ حسن آل حمادة أن نجري حواراً نخصصه بأكمله لأطروحة تعارف الحضارات، وأجرينا هذا الحوار ونشر في مجلة الحج والعمرة السعودية في أيار (مايو) ٢٠٠٣م. ولقي هذا الحوار اهتماماً ومتابعة، وأعيد نشره في العديد من المواقع الثقافية الإلكترونية، وساهم في تحريك مفهوم تعارف الحضارات ولفت الأنظار إليه، وتكوين المعرفة به بصورة واضحة وناضجة تقريباً.

وتطرق لهذا المفهوم أيضاً الحوار الذي أجرته معي مجلة التوعية البحرينية، حيث وجد المحاور الأستاذ حسين ماجد في مفهوم تعارف الحضارات مدخلاً - حسب رأيه - للحديث عن مستقبل العلاقات بين عالم الإسلام وعالم الغرب. وهكذا في الحوارات الأخرى التي كان يجري الحديث فيها عن قضايا الإسلام والغرب، أو قضايا حوار الحضارات أو صدامها، كان يحصل التطرق والاقتراب من مفهوم تعارف الحضارات.

- ٧ -

أما اليوم فقد اكتسب مفهوم تعارف الحضارات قوة التماسك والتحديد، ودخل حيز المجال التداولي، وبات معروفاً في مجال الدراسات الحضارية، وفي مجال الحديث عن العلاقات بين الحضارات بشكل خاص. ويجري الحديث عنه إلى جانب المفاهيم الأخرى، ويصنف باعتباره مفهوماً ثالثاً تارة، أو باعتباره يمثل نظرية ثالثة تارة أخرى. إلى جانب مفهومي أو نظريتي حوار الحضارات وصدام الحضارات.

ومن تجليات هذه الصورة ما ذهبت إليه الكاتبة السعودية سهام القحطاني في حديثها حول حوار الحضارات بقولها: «نحن نقف أمام ثلاث نظريات تشبه تشابك المغلقات؛ أولها صراع الحضارات التي تبناها الكاتب الأمريكي هنتنغتون، وحوار الحضارات التي تبناها المفكر الإسلامي الفرنسي روجيه غارودي، وتعارف الحضارات التي تبناها المفكر زكي الميلاد. ولكل منهم أنسقة تتداخل وتتعارض، فإذا اعتبرنا صدام الحضارات بوصفها نظرية تفسيرية، وحوار الحضارات بوصفها نظرية نقدية أو علاجية، فإن تعارف الحضارات هي نظرية إنشائية، بمعنى أن القاعدة فيها هي الإنشاء وليس الإخبار، فقد جاءت لإنشاء شكل العلاقات المفترض بين الناس كافة، حينما انقسموا إلى شعوب وقبائل كما يذهب زكي الميلاد»[(١)].

---

(١) سهام القحطاني. استدعاء التاريخ، المجلة الثقافية، ملحق أسبوعي يصدر عن صحيفة الجزيرة السعودية، الاثنين ٨ صفر ١٤٢٥هـ، ٢٩ آذار (مارس) ٢٠٠٤م، العدد ٥٢.

ومن هذه التجليات أيضاً ما ذهبت إليه الأكاديمية السعودية أميرة كشغري في حديثها عن سباق الحضارات، حيث اعتبرت أن في مقابل ما بدا من مؤشرات لصدام بين الحضارات، طرح عدد من السياسيين والمثقفين مشروع حوار الحضارات لروجيه غارودي، ليكون - حسب رأيها - منطلقاً فكرياً وسياسياً تبنى عليه العلاقات الدولية، ونظرية تعارف الحضارات لزكي الميلاد لتكون طريقاً للخروج من الإشكالية الثنائية التي كرست - حسب قولها - الطابع الجدلي بين مقولتي حوار الحضارات وصدام الحضارات[1].

وفي مصر نشر الكاتب المصري هشام الناصر مقالة بعنوان (رؤية في دعاوي الصدام والحوار) تطرق فيه إلى ردود الأفعال العربية والإسلامية تجاه ما يسمى بصدام الحضارات، حيث اعتبر أن هناك من أقر بالصدام بين الحضارات وألقى باللائمة المشتركة على الطرفين، وهناك من طالب بحوار بين الحضارات في رؤية انتقادية ثقافية وتشخيصية، وهناك من طالب بتمهيدات أسماها تعارف الحضارات قبل الحوار والخوض في الغمار، وهي دعوة - كما يقول الكاتب - أطلقها المفكر الإسلامي زكي الميلاد مستوحاة أساساً من القرآن الكريم.

وحينما سئل الأستاذ محمد عدنان سالم نائب رئيس اتحاد الناشرين

(١) أميرة كشغري، سباق الحضارات، صحيفة الوطن السعودية، العدد ١٣٥٥، الثلاثاء ١٥ حزيران (يونيو) ٢٠٠٤م.

العرب عن مشاركة العرب في معرض فرانكفورت الدولي للكتاب بمناسبة اختيار العالم العربي ضيف الشرف في المعرض لعام ٢٠٠٤م، أجاب الأستاذ محمد عدنان سالم: سيدخل العرب إلى معرض فرانكفورت حاملين شعار تعارف الحضارات وتكاملها بديلاً عن تصارعها وتصادمها[١].

والذين تعرفوا على هذا المفهوم وجدوا فيه تجلياً وتخلقاً، كما وجدوا أنه أكثر قرباً وتعبيراً عن المنظور الإسلامي في مجال العلاقات بين الأمم والشعوب.

وما زالت هناك فرص أكبر أمام اكتشاف هذا المفهوم، والتعرف عليه، والانخراط في التحاور والتواصل معه. هذه هي قصة مفهوم تعارف الحضارات.

(١) نشر هذا الحوار في صحيفة الوطن العمانية، بتاريخ ٢٤ آب (أغسطس) ٢٠٠٤م.

من حوار الحضارات
إلى تعارف الحضارات(*)

زكي الميلاد

- ١ -

حوار الحضارات والأنساق المعرفية

تنتمي نظرية حوار الحضارات إلى أنساق معرفية تتحدد في تلك الدراسات التاريخية المقارنة للحضارات، والأبحاث الأنثروبولوجية المقارنة للأجناس والسلالات البشرية. وهي الدراسات والأبحاث التي أكدت على الإسهامات الحضارية لمختلف الثقافات والمجتمعات، واعترفت للأجناس والسلالات البشرية المتعددة بالقدرة على المشاركة والبناء في التمدن والحضارة، وخلصت إلى نتيجة أساسية وهي أن الحضارات قامت ونهضت بمساهمات أجناس وسلالات بشرية مختلفة، ونادراً ما تكون هناك حضارة قامت على أكتاف جنس واحد. فالتاريخ يعلمنا، كما يقول المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي (١٨٨٩-

---

(*) ورقة مقدمة لندوة (الإسلام وحوار الحضارات) عقدت بالرياض في الفترة ما بين ١٧-٢٠ آذار (مارس) ٢٠٠٢م، نظمتها مكتبة الملك عبد العزيز العامة.

١٩٧٥م) بأن «جميع الأعراق البشرية مؤهلة للحضارة، وإن اختلاف الحضارات لا يعود إلى اختلاف الأجناس والأعراق، وإنما يعود إلى جملة من العوامل المتنوعة والمتغايرة بتغاير الظروف التاريخية. وقد بنت شعوب كثيرة على الأرض حضاراتها، فعاشت زمناً خاصاً بها، ورسمت لوحاتها الخاصة على المسرح الإنساني، وقد ترجم التاريخ حياة تلك الحضارات»[١].

وهذا ما حاول دراسته أيضاً والتأكيد عليه عالم الأجناس الفرنسي كلود ليفي شتراوس، حيث يدعو في كتابه (العرق والتاريخ) إلى المحافظة على تنوع الثقافات في عالم يصفه بأنه مهدد بالرتابة والتماثل، وإلى الاعتراف لجميع الأعراق بالمساهمة في التاريخ الإنساني وبناء الحضارة، وإن من العبث - حسب رأيه - تكريس الطاقة والجهد للبرهنة على تأكيد التفوق أو الدونية الثقافية لعرق على باقي الأعراق الأخرى، والحقيقة التي تفرض نفسها - كما يضيف شتراوس - هي أن تنوع الثقافات الإنسانية أكبر بكثير وأغنى من كل ما نحن مهيؤون لمعرفته على الإطلاق[٢].

أما المؤرخ والجغرافي الفرنسي رولان بريتون فإنه يقرر في كتابه

---

(١) المذاهب الكبرى في التاريخ. البان ج. ويدجيري، ترجمة: ذوقان قرقوط، بيروت، ص٣٢٥.

(٢) العرق والتاريخ. كلود ليفي شتراوس، ترجمة: د. سليم حداد، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٩٨٨م، ص١٠.

(جغرافيا الحضارات) حقيقة تمايز الحضارات، ويرى أن هذا التمايز يمثل ظاهرة ثقافية بوجه خاص، وأنه ناجم عن العقليات الجماعية في شتى المجتمعات، وليس ناجماً عن الطبيعة، أو المحيط الطبيعي. وأن التجديد الأكبر في الثقافة الأوروبية حسب رأيه، سوف يدور حول الاعتراف التدريجي بتنوع الثقافات والحضارات، والانتقال من الحضارة إلى الحضارات.

كما تنتمي نظرية حوار الحضارات إلى النزعة الإنسانية والأخلاقية التي ترفض النظر للبشر من خلال معايير اللون أو العرق أو اللغة واللسان، أو الثروة والجاه، أو السيادة والسلطة.. إلى غير ذلك من معايير تفاضلية تكرس التمايز اللاإنساني بين البشر.

وفي هذا النطاق تبرز محاولة المفكر الألماني ألبرت اشفيتسر (١٨٧٥-١٩٦٥م) الحائز على جائزة نوبل للسلام سنة ١٩٥٢م لنزعته الإنسانية الشاملة، في كتابه (فلسفة الحضارة) الذي دافع فيه بشدّة عن النزعة الأخلاقية والإنسانية للحضارة والحضارات. حيث اعتبر أن ماهية الحضارة وطبيعتها هي في جوهرها أخلاقية، ومعناها عنده بكل بساطة كما يقول: «بذل المجهود بوصفنا كائنات إنسانية، من أجل تكميل النوع الإنساني وتحقيق التقدم - من أي نوع كان - في أحوال الإنسانية وأحوال العالم الواقعي» لذلك فهو ينتقد المؤلفات الغربية عن الحضارات وأصولها دون الاهتمام بتقييم الحياة الروحية والأخلاقية للحضارة الأوروبية التي ينتسب هؤلاء المؤلفون لها، وما

إذا كانت هذه الحضارة قد سلكت طريقاً سليماً في التقدم، وحسب رأيه: «قد ظهر عدد من المؤلفات عن الحضارات بعنوانات متباينة منذ نهاية القرن الماضي وأوائل هذا القرن، لكنها لم تفلح في إيضاح الأحوال الراهنة في حياتنا العقلية، وإنما اقتصرت على أصول الحضارة وتاريخها، فقدمت لنا خريطة بارزة للحضارة؛ رسمت فيها الطرق التي سلكها الناس أو ابتدعوها، واقتادتنا خلال السهول والتلال التي يتألف منها مجرى التاريخ منذ عصر النهضة حتى القرن العشرين، وكانت انتصاراً للحاسة التاريخية عند أصحابها. والجماهير التي علمتها هذه المؤلفات امتلأت رضىً لما أدركوا أن حضارتهم هي نتاج عضوي لعدة قرون من نشاط القوى الروحية والاجتماعية، لكن لم يقم أحد بوصف حياتنا الروحية واستقصائها، ولم يمتحن أحد قيمتها من ناحية نبل أفكارها وقدرتها على إيجاد تقدم حقيقي.. وهكذا عبرنا القرن العشرين ونحن مخدوعون عن حقيقة أنفسنا خداعاً لم يبدده شيء. وكل ما كتب آنذاك عن حضارتنا كان يهدف إلى توكيد اعتقادنا بعلو قيمة هذه الحضارة، وكل من حاك الشك في صدره من ذاك كان ينظر إليه باستغراب»[١].

ومن انتماءات نظرية حوار الحضارات أيضاً الانتماء للفكر النقدي للغرب والحضارة الغربية، وفي هذا السياق تحديداً تأتي محاولة

---

(١) فلسفة الحضارة. ألبرت اشفيتسر، ترجمة: د. عبد الرحمن بدوي، بيروت: دار الأندلس، ١٩٩٧م، ص١١.

المفكر الفرنسي روجيه غارودي في الدعوة لحوار الحضارات. وحديثاً يمكن ربط هذه النظرية بالفكر النقدي الجديد للغرب والمتمثل بفكر ما بعد الحداثة، والذي يحاول تفكيك بنية خطاب المركزية الأوروبية، وتجديد النظر للثقافات غير الأوروبية وإعادة إدماجها في عوالم الحداثة بعد أن كانت هذه الثقافات يتحدد مكانها بحسب رغبة الغرب المتعالي في المدارات الهامشية، وتصنف خطاباتها على الماضي والتراث والتقليد والتبعية، من دون الاعتراف لها بأي إنجاز أو إبداع أو تفوق في النطاق الإنساني أو التراث العام. وهذا ما حاول فكر ما بعد الحداثة نقده والتشكيك فيه، من خلال تحطيم مقولات اليقين والإطلاق والثبات في الفكر الفلسفي الغربي، الأمر الذي يعني أن الحداثة ليست امتيازاً خاصاً بالغرب، وتقدم الغرب ليس هو نهاية التقدم أو نهاية التاريخ، وطريق النمو ليس له طريق واحد وخيار ثابت. هذا الاتجاه النقدي هو من ألمع اتجاهات فكر ما بعد الحداثة، الذي يحوم حوله الغموض والإبهام، وتنقسم تجاهه الآراء ووجهات النظر بطريقة متباينة ومتعارضة.

هذه هي انتماءات نظرية حوار الحضارات في الغرب الذي جاءت منه هذه النظرية؛ الانتماءات التي شكلت الأرضيات الفكرية والسياقات التاريخية والالتزامات الأخلاقية لنظرية حوار الحضارات. ومنذ أن طرحت هذه النظرية كقضية عالمية وإنسانية تطورت في أربعة أزمنة، اختلفت فيها الوضعيات والبواعث ومستويات الاهتمام،

وهي الأزمنة التي نحاول أن نؤرخ لها، ونتناولها بالتوصيف والتحليل والنقد.

- ٢ -

غارودي وحوار الحضارات

الزمن الأول: ويتحدد في النصف الثاني من سبعينيات القرن العشرين، حينما تبنى هذه الدعوة روجيه غارودي، وشرحها في كتابه الشهير (من أجل حوار بين الحضارات) الصادر سنة ١٩٧٧م. الكتاب الذي يمكن وصفه بمرافعة محكمة في الدفاع عن قضية حوار الحضارات، وبمنطق متماسك، وخطاب موثق بالشهادات والاستدلالات والحقائق، وبالنمط الذي يمكن اعتباره من صور تجسيد حوار الحضارات. كما أصبح غارودي من أكثر المنظرين والمتحمسين لهذه القضية التي عرف واشتهر بها.

وهذه الدعوة في أطروحة غارودي مرت بثلاثة أطوار زمنية وفكرية، جسدت شخصية غارودي الفكرية في انتقالاته وعبوره بين الأيديولوجيات والأديان، وطبيعته الجدلية والإشكالية، وذهنيته الحائرة والقلقة، بحثاً عن الأمل، وسعياً نحو الوصول إلى الأبعاد المفقودة. وهذه الأطوار هي:

الطور الأول: الدعوة للحوار بين الماركسية والمسيحية. وذلك حينما كان غارودي مفكراً في الحزب الشيوعي الفرنسي، وكان يصف نفسه بالمحرك الرئيسي لهذه الدعوة في فرنسا وأوروبة طيلة اثنتي عشرة

سنة. والغاية من هذه الدعوة، حسب رؤية غارودي، هي بناء العلاقة بين التحرر والإيمان.

الطور الثاني: في سنة ١٩٦٨م تكوّنت عند غارودي رؤية لفت بها نظر المجتمع المسكوني للكنائس في جنيف، حيث اعتبر أن الحوار بين الماركسيين والمسيحيين سوف يظل إقليمياً، حسب تعبيره، ولن يتقدم إلا في نطاق منطقة ثقافية واحدة، وهي منطقة الغرب، وإنه من الأهمية، في نظره، التحول نحو إدارة هذا الحوار على مستوى الحضارات. أما الغاية من هذا الحوار في نظر غارودي فهي بناء العلاقة بين الإيمان والتاريخ، الإيمان والعالم، الإيمان الذي يعطي الشعوب القوة والأمل في تغيير العالم والحياة.

الطور الثالث: التأكيد والتركيز على الحوار بين الغرب والإسلام. الدعوة التي ظهرت واضحة ومتجلية في الكتاب الذي أصدره غارودي سنة ١٩٨١ بعنوان (وعود الإسلام). وفي كتابه أيضاً (الإسلام في الغرب: قرطبة عاصمة الروح والفكر). فقد اعتبر بأن العقبة الرئيسية التي تقف في وجه حوار الحضارات هي النظرة التي حملها الغرب منذ مئات السنين عن الإسلام. وإن النظرة للإسلام في رؤية غارودي إنما تتعلق بمستقبلنا، مستقبل البشرية الذي يتعرض مصيره للخطر، فالإسلام قوة حية ليس كامناً فقط في ماضيه، وإنما في كل ما يمكن أن يقدمه لصنع المستقبل.

وقد تأكدت قناعة غارودي بالإسلام الذي أعلن اعتناقه له سنة

١٩٨٢م، ووجد فيه الأبعاد الإنسانية المطلوبة، والفرص المفقودة في أنظمة الغرب الثقافية والفلسفية والاجتماعية والاقتصادية. لذلك أولى أهمية للدفاع عن الإسلام، والتعرف عليه، واكتشاف جمالياته، وتركيز النقد على الغرب في رؤيته وأنماط تعامله مع الإسلام والتراث الإسلامي الذي يصفه بالتراث الثالث المكوّن للتراث الغربي، والذي رفضه الغرب كما يقول غاوردي منذ ثلاثة عشر قرناً، التراث الذي كان باستطاعته - ولا يزال، كما يضيف غارودي - ليس الإصلاح بينه وبين حِكَمِ العالم فحسب، بل مساعدته بالتعرف على الأبعاد الإنسانية والإلهية التي انفصل عنها، عندما نمّى أحادياً إرادته للسيطرة على الطبيعة والناس[١].

وما يعزز هذه القناعة عند غارودي رؤيته بأن الإسلام «لم يكمل ويخصب وينشر أقدم وأرفع الحضارات فحسب - كحضارة الصين والهند وفارس واليونان والاسكندرية وبيزنطة - بل حمل إلى امبراطوريات مفككة وحضارات ميتة، روح حياة جماعية جديدة، وأعاد إلى الناس ومجتمعاتهم أبعادهم الإنسانية والإلهية من تسام وتوحد. كما أعاد خميرة تجديد العلوم والفنون والحكمة التنبؤية والقوانين»[٢]، ويتساءل غارودي: «لقد أنقذ الإسلام في القرن السابع الميلادي، امبراطوريات كبيرة متهاوية، فهل يستطيع اليوم أن يحمل لنا

(١) وعود الإسلام، روجيه غارودي، بيروت: الدار العالمية، ١٩٨٤م، ص١٩.

(٢) المصدر نفسه ص١٩.

جواباً عن قلق ومشاكل الحضارة الغربية؟ هذه هي المسألة التي يجهد هذا الكتاب - وعود الإسلام - في طرحها إذا لم يكن في حلها!»[١].

أما في كتابه (الإسلام في الغرب) فهو ينطلق من فكرة يحاول أن يعيد من خلالها قراءة بداية تاريخ النهضة في أوروبة، وحسب تصوره فإن نهضة أوروبة الأولى لم تبدأ في إيطاليا، وإنما في إسبانيا خلال القرن الثالث عشر.. النهضة التي كانت وعداً مشرقاً في إسبانيا، وكان لها اتجاه معاكس ومختلف عن نهضة القرن السادس عشر في إيطاليا، ونهضة القرن السابع عشر في انكلترا، ونهضة القرن التاسع عشر في فرنسا، ونهضات القرنين الأخيرين في الغرب[٢]. ويختتم غارودي كتابه وفي السطر الأخير منه بأمل أن تعطي الأندلس وقرطبة للعالم ثانية رسالة عصورها الذهبية، رسالة حضارة الكوني الشمولي[٣]. ويستشهد في كتابه (وعود الإسلام) برأي المستشرق الهولندي دوزي (١٨٢٠-١٨٨٣م) الذي عرف باهتمامه بحضارة العرب، في كتابه (تاريخ مسلمي إسبانيا) حيث يرى بأن الفتح العربي كان خيراً لإسبانيا، لأنه أحدث ثورة اجتماعية هامة، وقضى على قسم كبير من الشرور التي كانت ترزح البلاد تحتها منذ قرون[٤].

---

(١) المصدر نفسه ص٢٥.

(٢) الإسلام في الغرب: قرطبة عاصمة الروح والفكر، روجيه غارودي، ترجمة: د. محمد مهدي الصدر، بيروت: دار الهادي، ١٩٩١م، ص١٤-٢٥١.

(٣) المصدر نفسه ص٢٥٢.

(٤) وعود الإسلام مصدر سابق، ص٥١.

ومع أن غاروديكان ينطلق من مقولة حوار الحضارات في توجيه النقد التاريخي والفلسفي والاجتماعي للغرب، إلا أنه كان متوجهاً للغرب في خطابه، وليس للحضارات الأخرى، كما لو أن الغرب هو المعني بهذه الدعوة لحوار الحضارات، بقصد تصحيح مساراته بعد أن وصل إلى مأزق حضاري خطير، كما يصور غارودي، لذلك يرى بأن «حوار الحضارات أصبح ضرورة عاجلة لا سبيل لردها، إنه قضية بقاء، لقد بلغنا حد الخطر، بل لعلنا تجاوزناه.. إن مهمتنا بعد الفرص التاريخية الضائعة، وضياع أبعاد الرجل الغربي، هي استئناف حوار حضارات الشرق والغرب من أجل وضع حد لحوار الذات الغربي الانتحاري.. إدراك هذا النقص وإدراك ما ندين به للثقافات والحضارات غير الغربية، هو اليوم، على ما نظن، السبيل الوحيد الذي بقي مفتوحاً أمامنا خارج مأزق الموت»[١].

وحين يحاول غارودي أن يحدد ما يريده من أطروحته لحوار الحضارات في نقاط رئيسية، فإنه يحددها على ضوء نقده ورؤيته لمشكلات الغرب ومآزقه التي شرح أبعادها وملامحها في كتابه (حوار الحضارات). وهذه النقاط هي:

١- دراسة الحضارات اللاغربية في مجال الدراسات، والتعامل معها بمنزلة تعادل بأهميتها على الأقل أهمية الثقافة الغربية.

---

(١) المصدر نفسه ص٢٣-٢٤.

٢- أن يشغل مبحث الجمال منزلة تعادل بأهميتها على الأقل أهمية تعليم العلوم والتقنيات.

٣- أن تعادل أهمية النظرة الأمامية - فَنُّ تخيل المستقبل - والتفكير في الغايات والأهداف، أهمية التاريخ على الأقل[١].

هذا هو المأخذ الرئيسي على رؤية غارودي لحوار الحضارات لكونها تستجيب بصورة أساسية لحاجات الغرب ومشكلاته، باعتبارها ناظرة إليه، ولا تلبي من جهة أخرى حاجات الحضارات غير الأوروبية. أما قيمتها الرئيسية فهي في النقد الذي وجهه غارودي للغرب، وأراد منه أن يدفعه لمراجعة ذاته وتراثه وتاريخه، وأن يغير من نظرته إلى العالم، ويدخل في مصالحة مع الحضارات غير الغربية، والاستفادة والتعلم منها، واكتشاف مستقبله المشترك مع بقية العالم، وليس مستقبله الذي لا يرى فيه إلا ذاته. وقيمة هذا النقد أنه يأتي من مفكر غربي واسع الثقافة والمعرفة، ومنفتح على الثقافات والحضارات غير الأوروبية، وقد تمثل حوار الحضارات في تجربته الفكرية بتحولاته وتقلباته وانتقالاته.

وكان بالإمكان لأفكار غارودي أن تكون لها فاعلية وشأن، لو انفتح الغرب عليها، وقبل الإصغاء إليها، وتفهمها. لذلك فقد بقيت

---

(١) حوار الحضارات، روجيه غارودي، ترجمة: د. عادل العوا، بيروت - باريس: منشورات عويدات، ١٩٧٨م، ص١٨٦.

أطروحة غارودي مجرد دعوة لم تتحول إلى تيار فاعل ومؤثر في الغرب والثقافة الغربية، حتى مع محاولته لإنشاء معهد دولي لحوار الحضارات سنة ١٩٧٦م، وسعيه بعد ذلك لإحياء مشروع قرطبة كمركز إشعاعي حضاري جديد في الغرب. إلا أن هذه الأفكار بقيت مجرد طموحات وآمال غاية في النبل.

ومع دخول العالم حقبة الثمانينيات من القرن العشرين تراجعت الدعوة إلى حوار الحضارات، وظهرت ما سميت بالأصوليات، وارتفعت درجة الاحتكاك والتوتر بين العالمين الإسلامي والغربي. وفي هذا السياق نشر غارودي كتابه (الأصوليات المعاصرة أسبابها ومظاهرها) حيث اعتبر فيه أن الأصوليات كل الأصوليات، تشكل الخطر الأكبر على عصرنا وعلى المستقبل. وحتى في هذا الكتاب لم يغفل غارودي عن توجيه النقد للغرب، بتحميله مسؤولية انبعاث الأصوليات بكل أشكالها في العالم الثالث، نتيجة إصراره على فرض نموذجه الإنمائي والثقافي، واعتبر الأصولية الغربية هي العلة الأولى التي ولدت كل الأصوليات الأخرى رداً على أصولية الغرب، وتحدياً لها.

- ٣ -

هنتنغتون وصدام الحضارات

الزمن الثاني: ويبدأ مع ظهور مقولة صدام الحضارات التي بشر بها صموئيل هنتنغتون في صيف ١٩٩٣م، على صورة مقالة نشرها في

مجلة (الشؤون الخارجية) الأمريكية. ومن ثم حولها إلى مشروع كتاب صدر سنة ١٩٩٦م بعنوان (صدام الحضارات وإعادة صياغة النظام العالمي). ومنذ ذلك الوقت والجدل يحتدم حول هذه المقولة بين الكتّاب والأكاديميين والسياسيين في مختلف مراكز العالم، وتحولت إلى واحدة من أنشط الأفكار تداولاً ونقاشاً وسجالاً بسبب طبيعتها التحريضية وبنيتها التفسيرية ورؤيتها التشاؤمية، ولأنها جاءت في وقت دخل العالم فيه مرحلة ما بعد الحرب الباردة، فكانت التطلعات باتجاه إزالة المخاوف من إمكانية وقوع الحروب، ووقف سباق التسلح العالمي وتوازنات الردع النووي التي جعلت المجتمع الدولي يعيش حالة من الرعب، وبدل الشعور بالتفاؤل جاءت هذه المقولة لكي تبعث التشاؤم المخيف، وتبشر بحرب باردة بين الحضارات أشدّ خطورة مما كانت بين الدول في المرحلة السابقة.

إن هذه المقولة تمثل ارتداداً على مقولة حوار الحضارات، وعلى تلك الدراسات والأبحاث المقارنة لتاريخ الحضارات، وهي تنتمي لنسق آخر من الدراسات الغربية التي اتصفت بالتحيز المفرط والنزعة العدائية والتوظيف اللاأخلاقي، وارتبطت بعلاقات مباشرة مع مؤسسات التبشير وأجهزة الاستعمار الأوروبي كدراسات بعض المستشرقين التي تصنف على الاستشراق التقليدي، ودراسات بعض الأنثروبولوجيين التوظيفية.

وتنتمي هذه المقولة إلى العلوم السياسية، وعلم السياسة الأمريكي

على وجه الخصوص. فقد ارتبطت هذه المقولة بأسماء مفكرين يصنفون مهنياً وأكاديمياً على هذا الحقل، وينتمون إلى المدرسة الأمريكية في علم السياسة. وإذا كان هنتنغتون هو الذي عرف واشتهر بهذه المقولة، إلا أن هناك من سبقه إليها بطرح مماثل في التحليل والتفسير والاستشراف، وهو أستاذ الدراسات الدورية بجامعة وور ويك البريطانية باري بوزان الذي نشر مقالة بمجلة (الشؤون الدولية) الأمريكية في تموز (يوليو) ١٩٩١م، حملت عنوان (السياسة الواقعية في العالم الجديد: أنماط جديدة للأمن العالمي في القرن الواحد والعشرين)، توصل فيها إلى ما اصطلح عليه بتصادم الهويات الحضارية المتنافسة وبالذات بين الغرب والإسلام، فإذا اجتمع خطر الهجرة كما يقول، وخطر تصادم الثقافات، أصبح من السهل وضع تصور لنوع من الحرب الباردة الاجتماعية بين المركز وجزء من الأطراف على الأقل، ولا سيما بين الغرب والإسلام. فالهجرة حسب رأيه من الجنوب إلى الشمال، وبكيفية خاصة من جنوب البحر المتوسط إلى شماله، تشكل خطراً على أمن دول المركز، إذ تهدد هويتها الحضارية. والتصادم الحضاري هو أوضح ما يكون - حسب رؤية بوزان - بين الغرب والإسلام، نظراً للتعارض بين القيم العلمانية السائدة في الغرب وبين القيم الإسلامية، وللتنافس التاريخي بين المسيحية والإسلام، ولغيرة المسلمين من قوة الغرب، إضافة إلى الجوار الجغرافي. والذي يختلف فيه بوزان عن هنتنغتون أنه يضيف الحضارة الهندية إلى جوار الإسلام في الحرب الباردة الحضارية مع

الغرب، في حين يضيف هنتنغتون الحضارة الصينية الكونفوشية مكان الحضارة الهندية[١].

أما الذي يمكن أن يصنف مرجعاً لمثل هذه الآراء والأفكار فهو المستشرق والمؤرخ المعروف برنارد لويس أستاذ تاريخ الشرق الأدنى في جامعة برينستون إحدى أهم الجامعات الأمريكية السبع، ومع أنه معروف بتحيزه لآراء وأفكار وتحليلات معارضة للإسلام والعرب، مع ذلك يعتبر من أهم المؤرخين في كتابة تاريخ الشرق الأدنى الحديث والمعاصر، ولعله آخر المستشرقين الذين يمثلون المدرسة الكلاسيكية. وقد شبه إدوارد سعيد هنتنغتون ببرنارد لويس في موقفه بانتقاء المصادر التي تناسبه في سرد تاريخ الشرق الأوسط والإسلام. واعتبر محمد عابد الجابري آراء هنتنغتون بأنها مماثلة لآراء رَوَّج لها برنارد لويس ويميل إليها هنتنغتون نفسه.

ولعل ما تميز به هنتنغتون في هذا الشأن هو أنه استطاع تحريك هذه المقولة في المسرح الدولي، وقام بتعميمها على نطاقات واسعة، وظل يدافع عنها، ويحرض عليها. وفي نظر الكاتب الأمريكي جيمس كورت وهو يجيب على سؤال حول الصراعات السياسية الرئيسية التي سيشهدها المستقبل في نظره «هذا هو السؤال الذي يفرض نفسه على الجدل الدائر حول الشؤون الدولية، وقد جاءت أكثر الإجابات

---

(١) انظر كتاب: قضايا في الفكر المعاصر، د. محمد عابد الجابري، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٧م، ص٩٠.

شمولاً وإثارة للجدل من جانب صمويل هنتنغتون الذي فجر مفهومه حول تصادم الحضارات صداماً كبيراً بين الكتّاب»[1].

إن اختلاف موقف هؤلاء الذين يقولون بصدام الهويات أو الحضارات أو بين الإسلام والغرب، عن أولئك الذين يتحدثون عن تعاون الثقافات أو حوار الحضارات، يعود إلى طبيعة المنظور، وطرائقه التوصيفية والتحليلية والتفسيرية؛ والذي ينقسم هنا إلى منظورين: منظور يستند إلى البحث التاريخي المعرفي كما هو عند توينبي، أو الأنثروبولوجيا كما عند شتراوس، أو على الفلسفة الأخلاقية كما هي عند اشفيتسر. ومنظور يستند إلى السياسة والأمن والدفاع، وهو المنظور الذي أوصل بوزان ولويس وهنتنغتون إلى فكرة صدام الحضارات. وهذا المنظور الذي ينطلق من علم السياسة، من طبيعة حقله وأدواته أن يتعامل مع أفكار ونظريات حول الصراع أو القوة أو النزاع أو السيادة وما يعرف بالجغرافيا السياسية، لذلك يكون الصراع أو الصدام حاضراً في منهجيات النظر وعناصر التحليل ومكونات الأفكار، وهذا ما وقع فيه هنتنغتون الذي كرس حياته المهنية والأكاديمية في مجال الدراسات السياسية والاستراتيجية، فهو أستاذ العلوم السياسية بجامعة هارفارد، ومدير معهد الدراسات الاستراتيجية فيها أيضاً، ومدير أكاديمية هارفارد للدراسات الدولية

---

(١) الثقافة العالمية، مجلة، الكويت، السنة الثالثة عشرة، العدد ٧٧، تموز (يوليو) ١٩٩٦م، ص٧، جيمس كورت، تصادم المجتمعات الغربية: نحو نظام عالمي جديد.

والإقليمية، ورئيس الجمعية الأمريكية للعلوم السياسية، وكان مسؤولاً عن التخطيط بمجلس الأمن القومي في إدارة الرئيس السابق جيمي كارتر. ومن جوانب النقد الأساسية التي وجهت لهنتنغتون، هو أنه ينطلق من مفهوم الدولة كما تحدد في علم السياسة، وليس من مفهوم الحضارة كما تحدد في علم التاريخ والبحث التاريخي. لذلك فإن مقولته هي أقرب إلى النظريات السياسية، والتي تنطلق من بواعث سياسية ولمقاصد سياسية.

ولقد استفزت هذه المقولة المجتمع الدولي، وكانت الباعث الأساسي لإحياء مقولة حوار الحضارات باعتبارها الطرف النقيض والطرح الإيجابي الموازي لتلك المقولة.

- ٤ -

الأمم المتحدة وحوار الحضارات

الزمن الثالث: إذا كان هذا الزمن يتصل بالزمن الثاني ويتأثر به، فإنه يختلف ويفترق عنه في مستويات الاهتمام، وديناميكيات التطور، وطرائق التعاطي. ويؤرخ لهذا الزمن بموافقة الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها الثالثة والخمسين لسنة ١٩٩٨م على اقتراح باعتبار سنة ٢٠٠١م سنة الأمم المتحدة للحوار بين الحضارات، وهو الاقتراح الذي تقدم به السيد محمد خاتمي رئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية في خطابه الذي ألقاه بالجمعية العامة للأمم المتحدة في آب (أغسطس) ١٩٩٨م.

والخلفيات التي يطرحها قرار الأمم المتحدة تنتمي وتتوافق مع

أفكار المفكرين والمؤرخين أصحاب النزعة التاريخية والأنثروبولوجية والأخلاقية وتصوراتهم، الذين يؤكدون على مفاهيم تنوع الثقافات وتعدد الحضارات، واعتبار هذا التنوع والتعدد مصدر إثراء واستلهام يبعث على التجدد والتواصل والتقدم بين الأمم والحضارات.

فقد جاء في نص قرار الأمم المتحدة كخلفيات لهذا القرار، وتعزيزاً لهذا الاختيار، العبارة التالية: «ومع الإقرار بالإنجازات الحضارية المتنوعة للبشر، وضرورة بلورة ثقافة تعددية، والقبول بتنوع المخلوقات البشرية، والأخذ بعين الاعتبار أن التعاملات الثنائية بين الحضارات على امتداد التاريخ الإنساني، كانت مستمرة على الرغم من وجود الموانع النابعة من عدم التسامح والنزاع والحروب، ومع التأكيد على أهمية التسامح في العلاقات الدولية والدور الرفيع للحوار بمثابة أداة للوصول إلى التفاهم وإزالة تهديدات السلام وتعزيز التعامل والتبادل بين الحضارات.. ومع إعادة التأكيد بأن الإنجازات الحضارية تشكل ميراثاً مشتركاً للبشرية جمعاء، وتهيئ مصدراً لسمو البشرية وتقدمها، والترحيب بالمساعي الجماعية للمجتمع الدولي، وباتجاه مزيد من التفاهم من خلال الحوار البناء بين الحضارات على عتبة الألفية الثالثة. تعلن عن عزمها الراسخ على تسهيل وترويج الحوار بين الحضارات».

وهذا التبني من طرف الأمم المتحدة ساهم بصورة فاعلة وكبيرة في تحريك مفهوم حوار الحضارات وتعميمه، وتحويله إلى أحد مفاهيم

العلاقات الدولية. بحيث بات يأتي ذكره في مناسبات واجتماعات عديدة، ويشار إليه في البيانات والتقارير والبرامج الإقليمية والعالمية، وعقدت حوله كثير من الندوات والمؤتمرات توزعت في دول مختلفة. بحيث يمكن القول أنه لأول مرة يتسع الاهتمام العالمي بقضية حوار الحضارات.

إن اختيار سنة ٢٠٠١م تحديداً كان بقصد أن يستقبل العالم الألفية الثالثة بنوع من التفاؤل والثقة والشعور بالأمن والسلام، والاندفاع نحو تجديد وتطور العلاقات الدولية بين الأمم والشعوب. وذلك بعد أن كان القرن العشرون قرن الحروب الكبرى، بدأ بحرب عالمية فتاكة في منطقة الشمال سنة ١٩١٤م، وانتهى بحرب مدمرة وهي حرب الخليج الثانية في منطقة الجنوب، سنة ١٩٩٠م.

يبقى أن التطور المهم الذي حصل في هذا الشأن هو إحياء مفهوم حوار الحضارات وتجديده وزجه في مجال العلاقات الدولية، واستخدامه في نقد مقولة صدام الحضارات وتقويضها ومحاصرتها، وبناء تراكمات فكرية وثقافية حوله، وفتح أوسع نقاش دولي عابر للثقافات والقوميات واللغات حوله، والتأكيد على بناء الجسور وتعزيز الحوار بين الحضارات.

أما الزمن الرابع: فقد بدأ مع أحداث أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١م، الأحداث التي فجرت معها مقولة صدام الحضارات، وكشفت للعالم العربي أهمية قضية حوار الحضارات وقيمتها، فتحول الاهتمام بهذه

القضية من النطاق النظري إلى النطاق الفعلي؛ فلأول مرة في تاريخ الجامعة العربية تعقد مؤتمراً فكرياً حول حوار الحضارات، وتخصص صندوقاً مالياً لدعم هذه القضية، وتستحدث مفوضية خاصة في هذا الشأن.

- ٥ -

حوار الحضارات، فحص ونقد

أما النقد الذي يتوجه لمفهوم حوار الحضارات، فله أبعاد مختلفة؛ منها ما يتصل بتركيبة المفهوم واختراعه وصياغته، ومنها ما يتصل بالقدرة والفاعلية والتأثير، ومنها ما يتصل بطبيعة الأرضيات والعناصر الموضوعية بصورة عامة.

فيما يتصل بتركيبة المفهوم وطريقة صياغته واختراعه، فقد أطلتُ كثيراً التأمل والتفكير فيه، وكنت أتساءل كيف يمكن للحضارات أن تتحاور؟ حتى يصح استعمال مصطلح حوار الحضارات. هل عن طريق ممثلين ومفوضين عن الحضارات لهم صفة قانونية أو اعتبارية؟ لكنني وجدت أنه لم تحصل سابقة بهذا الشكل، لأن كل حضارة فيها من الانقسامات والتعدديات الدينية والمذهبية، العرقية والقومية، اللغوية واللسانية، ما يجعل من الصعوبة القيام بمثل هذا الدور. من جهة ثانية إن السائد حالياً في مجال العلاقات الدولية هو مفهوم الدولة وليس مفهوم الحضارة، والعلاقات من ثمَّ هي علاقات بين دول وليس بين حضارات. والتمثيل والتفويض لو حصل فرضاً بين

المجموعات الحضارية فهو أقرب ما يكون إلى تمثيل دول وليس حضارات، إلا أن نقول بأن ما يجري في الجمعية العامة للأمم المتحدة التي تضم دولاً من مختلف الحضارات والثقافات والقوميات والديانات هو الذي يمثل الصورة الفعلية لحوار الحضارات، حتى لو سلمنا بهذا الفرض وهو أقرب الفروض استباقاً إلى الذهن، إلا أن ما يجري هناك ليس مبرمجاً لهذا الغرض. وحينما طالبت إيران بأن يكون لدول المجموعة الإسلامية ممثل دائم بمجلس الأمن اعترضت مصر على هذا الاقتراح، لأن التمثيل حسب رأيها لا يخضع لموجبات أو معايير دينية.

كما أن الدراسات والأبحاث التاريخية والأنثروبولوجية المقارنة للحضارات، لم تستعمل مصطلح أو تسمية (حوار الحضارات)، وهي الدراسات التي بحثت مختلف أشكال العلاقات بين الحضارات وصورها، استعملت تسميات أخرى كتعاون الثقافات عند شتراوس، وتفاعل الحضارات عند قسطنطين زريق، إلى غير ذلك من تسميات، الأمر الذي يدعو إلى مساءلة تسمية (حوار الحضارات).

وفي نظر الدكتور الجابري فإن هذا الشعار هو في جميع الأحوال مفعم بالغموض والالتباس.. والذين يرفعونه واقفون عند منطوقه حيث ينطوي موقفهم على نوع من الغفلة؛ ذلك لأن الحوار بين الحضارات إما أن يكون عفوياً تلقائياً نتيجة الاحتكاك الطبيعي

فيكون عبارة عن تبادل التأثير، عن أخذ وعطاء، بفعل الصيرورة التاريخية. وهذا النوع من تلاقح الحضارات لا يحتاج إلى دعوة ولا يكون بتخطيط مسبق، بل هو عملية تاريخية تلقائية[١].

وهذا النقد لمصطلح حوار الحضارات يعتبر جديداً في الكتابات العربية، وهو ناشئ عن الشيوع والتداول الواسع لهذا المصطلح، الأمر الذي اقتضى فحصه وإعادة النظر فيه.

أما فيما يتصل بجانب القدرة والفاعلية والتأثير. فلن يكون لدعوة حوار الحضارات تلك القدرة الحيوية في التأثير على مجرى السياسات العالمية، أو خريطة العلاقات الدولية لشدّة تعقيداتها وتناقضاتها وتصادماتها، وتضارب مصالحها، وتفاوت ثرواتها، إلى غير ذلك من توصيفات وتصنيفات. لهذا السبب فإن مقولة صدام الحضارات هي أقرب إلى روح العالم المعاصر بمعادلاته ومكوناته وعناصره القائمة، والمحكوم بذهنية الهيمنة والسيطرة والاستقطاب. وهي الوضعيات التي كوّن منها هنتنغتون مقولة صدام الحضارات، وأراد منها حسب رأيه أن تكون مقولة تفسيرية، وليس تقريرية كما فهم منتقدوه في رده عليهم. وحينما كان بطرس بطرس غالي أميناً عاماً للأمم المتحدة أعلن سنة ١٩٩٥م «إن بعض الدول اعتقدت أن بإمكانها الاسترخاء بعد الانتصار في الحرب الباردة، وهي تكتشف أنه على العكس من

(١) قضايا في الفكر المعاصر، مصدر سابق، ص١٣٠-١٣١.

ذلك؛ فإن الحرب الباردة حالت دون وقوع أو أخفت ٣٠ حرباً صغيرة نواجهها اليوم.. وإن العالم يمر بفترة أصعب من الفترة التي شهدها خلال الحرب الباردة، والأمم المتحدة غير قادرة على حل المشاكل جميعها».

وفي مؤتمر الأمم المتحدة الثالث حول الدول الأقل تقدماً، الذي عقد في بروكسل سنة ٢٠٠١م، قال الأمين العام للأمم المتحدة كوفي عنان في كلمة الافتتاح: إن هذا المؤتمر هو الثالث الذي ينعقد في غضون ٢٠ عاماً، وبدلاً من أن تنخفض لائحة الدول الأقل تقدماً، فإنها قد ازدادت. وبحسب أرقام الأمم المتحدة فإن عدد الدول الأقل تقدماً قد ارتفع من ٢١ دولة في العام ١٩٧١م إلى ٤٩ دولة اليوم.

ومن جهة الأرضيات فليست هناك إمكانيات فعلية للنهوض بحوار بين الحضارات، لأن الغرب الذي يفترض فيه أن يكون طرفاً أساسياً في أي حوار من هذا المستوى، ليس على استعداد - وهو الذي يمثل الحضارة الغالبة والمهيمنة على العالم وثرواته - أن يدخل في حوار متكافئ مع الحضارات الأخرى، ولا يرى نفسه معنياً بها أساساً، ويتعامل معها بنوع من التعالي المفرط. وتاريخه القديم والحديث والمعاصر خير شاهد على ذلك. حتى الحضارات الأخرى ليست لديها القدرة والإقناع في أن تدخل في حوار متكافئ أو متوازن أو في شراكة فعلية أو عادلة مع الغرب.

وفي هذا النطاق يعتبر غارودي من الذين قدموا نقداً شديد الأهمية

للغرب والثقافة الغربية في مجال علاقته بالعالم والحضارات غير الغربية. فالغرب، كما يرى غارودي، قد صادر المعرفة العالمية وأباح لنفسه تحديد مواقع الآخرين، والحكم عليهم، وفقاً لتاريخه وغاياته وقيمه[١]. لذلك فإن المشكلة الأساسية في الثقافة الحاضرة - كما يضيف غارودي - هي في أن نقضي على التصور التسلطي في الثقافة الغربية، والاستعاضة عنه بتصور يتطلع بأسئلته إلى حكمة العالم اللاغربي.. وذلك لا يمكن إلا بالانخراط في حوار حضارات حقيقي مع الثقافات غير الغربية[٢].

أما رولان بريتون فإنه يرجع هذه الإشكالية في ذهنية الغرب إلى منشأ تصور الأوروبيين لمفهوم الحضارة والثقافة، حيث يرى أنه «في ذروة العصر الذي كان الأوروبيون يهيمنون فيه على العالم، فكرياً وسياسياً، جرى تصور الحضارة أولاً بصيغة المفرد، وكذلك الحال بالنسبة إلى الثقافة.. وفي الوقت الذي كانت أوروبة تبتكر كلمة حضارة كانت تكتشف المتوحشين أيضاً. فكانت تقوم بجردة للعالم غير المغلق حقاً بعد، وباستشراف للبشرية التي لا يزال الجدال دائراً حولها، وكان التعارض الأساسي بين الطبيعة والثقافة قد سمح بفرز أولي مختصر بين شعب طبيعي وثقافي، أي بين شعب بدائي

(١) وعود الإسلام، ص٢٣٧.

(٢) حوار الحضارات، مصدر سابق، ص٩٣.

ومتحضر»[1]. ما يريد أن يقوله بريتون هو أن الأوروبيين تكونت نظرتهم إلى العالم من خلال مفهوم للحضارة يكاد يتحدد فيهم وينحصر عندهم. ونقيض الحضارة في تصورهم هو التوحش أو البدائية؛ الوصف الذي يطلقونه على من يكون في الطرف المغاير لهم.

من جهة أخرى فإن الغرب شديد الحذر من أي تقارب أو توافق يحصل بين الحضارات، خصوصاً إذا كان الإسلام طرفاً فيها، خوفاً أو توهماً من تحول هذا التقارب أو التوافق إلى نوع من التحالف المتعارض مع الغرب. لذلك يحذر بوزان من حصول توافق بين الإسلام والحضارة الهندية، أو بين الإسلام والحضارة الصينية كما في رؤية هنتنغتون. الوهم الذي يحرض الغرب على تعطيل أي حوار بين الحضارات، والسعي إلى تفكيكه وتأليب العالم على مناهضته.

مع كل ذلك سوف يظل العالم يتطلع إلى حوار الحضارات، كدعوة أخلاقية وإنسانية نبيلة.

- ٦ -

تعارف الحضارات

البحث عن مفهوم آخر، هو من مقتضيات التجدد والاجتهاد والفاعلية، وعدم الجمود أو التوقف. ولضرورات البحث عن أبعاد

(١) جغرافيا الحضارات، رولان بريتون، ترجمة: د. خليل أحمد خليل، بيروت - باريس: منشورات عويدات، ١٩٩٣م، ص٢٠-٢١.

أخرى قد تكون غير مكتشفة، ولفتح مجال التفكير نحو مفهوم جديد، وأهمية فحصه واختباره، وجعله في دائرة النظر والتحليل. هذا من حيث مقتضيات بناء المفهوم كعملية معرفية.

وهناك مقتضيات أخرى ذات علاقة بالتاريخ الحضاري لعالم الإسلام، فقد كانت للمسلمين تجربتهم في بناء الحضارة، وتكونت لهم معرفة وخبرة في هذا المجال. وأكثر من ذلك فالإسلام في نظر برنارد لويس أول من سعى إلى العالمية، فالحضارات القديمة للبحر المتوسط والشرق الأوسط ولأوروبة والهند والصين، كانت محلية، وإقليمية في أحسن حال كما يقول لويس الذي اعتبر أن «المسيحية والإسلام على السواء انفتحا على مهمة عالمية، فالمسكونية الإسلامية امتدت على أجزاء كبيرة من آسيا وأفريقيا وأوروبة، وكانت البادئة في إيجاد حضارة متعددة الأعراق، ومتعددة الثقافات، وإلى حد ما متعددة القارات. فقد امتدت الحضارة الإسلامية إلى أبعد بكثير من أقصى حدود وصلتها الثقافتان الرومانية والهيلينية، وقدرت بذلك على اقتراض عناصر مميزة من حضارات أكثر بعداً في آسيا ثم تبنيها وإدماجها»[١].

---

(١) جريدة السفير، بيروت، الجمعة ٧ شباط (فبراير) ١٩٩٧م، الحضارة الغربية دمج حداثات، والإسلام أول من سعى إلى العالمية، برنارد لويس، ترجمة: فؤاد حطيط، عن مجلة: فورين أفيرز، الولايات المتحدة الأمريكية، كانون الثاني (يناير)، شباط (فبراير) ١٩٩٧م.

لذلك يفترض أن يكون في التصور الإسلامي رؤية أو مفهوم يحدد شكل العلاقات مع الأمم والمجتمعات والحضارات الأخرى. والقرآن الكريم الذي جاء للناس كافة ورحمة للعالمين، هو الرسالة الخالدة للبشر بكل تعددياتهم وتنوعاتهم، وهذا من آيات حكمة الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الروم: ٣٠/٢٢]، هذا الاختلاف أو التعدد والتنوع في الاجتماع البشري كما تقرره الآية يفترض أن يتأسس على قاعدة أو مفهوم قد تحدد في القرآن الكريم.

والمفهوم الذي نتوصل إليه، ونزداد ثقة به وبقيمته المعرفية والأخلاقية والإنسانية هو مفهوم (التعارف)، لأن منشأ هذا المفهوم هو القرآن الكريم. حيث ورد في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ [الحجرات: ٤٩/١٣]. وهذه الآية تحديداً من أكثر آيات القرآن الكريم التي تكرر ذكرها والحديث عنها، والالتفات إليها في الكتابات العربية والإسلامية، منذ أن تجدد الحديث حول حوار الحضارات، الأمر الذي يجعلها ذات علاقة بهذا الشأن.

وقد استشهد بهذه الآية الدكتور حسين مؤنس في كتابه (الحضارة) الذي يتحدث فيه عن أصول الحضارة وعوامل قيامها وتطورها. وذلك في سياق حديثه عن علاقة الحضارة بالأجناس، وما توصل إليه المؤرخون الغربيون بعدم حصر القدرة على بناء الحضارة بأجناس معينة، وأن الحضارات إنما قامت بمشاركة أجناس متعددة.

ويعقب الدكتور مؤنس على هذا الرأي بقوله: «لقد خرج المؤرخون الغربيون بهذه النتيجة بعد جهد وعناء، في حين أننا معاشر المسلمين والمتكلمين بالعربية، نفتح القرآن الكريم فنجد أنه أجمل ذلك كله في آية واحدة من آياته، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٣]»[1].

حضور هذه الآية والاستشهاد بها والالتفات إليها في الأدبيات العربية والإسلامية يكاد ينحصر ويتحدد في نطاق التذكير بها أو مجرد الإشارة إليها، من دون التعمق في استجلاء دلالاتها، أو استكشاف مكوناتها، أو إمكانية ابتكار مفهوم منها، يكون أصيلاً ومحكماً بشرائطه العلمية وقواعده الاصطلاحية.

وهذه ملاحظة منهجية ومعرفية ترتبط عموماً بعلاقة الباحثين والمفكرين والمؤرخين بالقرآن الكريم وعلوم التفسير ومناهجه، وإمكانية التعامل معه كمرجع يرجع إليه في حقول العلوم الاجتماعية والإنسانية. وترتبط هذه الملاحظة عند البعض بعوامل نفسية وفكرية ذات علاقة بطرائق التعامل مع القرآن الكريم، وكيفية الرجوع إليه، والاستنباط منه.

---

(١) الحضارة: دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، د. حسين مؤنس، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة (٢٣٧)، ١٩٩٨م، ص٥٠.

والتأمل الفاحص لهذه الآية يكشف لنا عن حقائق كلية ذات أبعاد إنسانية عامة، نتوصل منها لمفهوم نصطلح عليه بتعارف الحضارات. والتعارف هو المفهوم الذي حاولت هذه الآية تحديده وتأكيده وإبرازه والنص عليه. من خلال سياق وخطاب يؤكد على قيمته وجوهريته، لأن يكون مفهوماً أساسياً. وذلك من خلال الحقائق التالية:

١- الخطاب في سورة الحجرات متوجه بشكل صريح إلى المؤمنين في بداية السورة وفي خاتمتها - باعتبارها من السور المدنية - إلا في هذه الآية الثالثة عشرة حيث توجه الخطاب إلى الناس كافة بصيغة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، الأمر الذي جعل بعض المفسرين يعتبر هذه الآية مكية. وكون الخطاب متوجهاً إلى الناس فهو ناظر إليهم بكل تنوعهم وتعددهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم، وإلى غير ذلك من تمايزات ومفارقات.

٢- التذكير بوحدة الأصل الإنساني ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ فالناس بكل اختلافاتهم وتعدداتهم وتباعدهم في المكان والأوطان إنما يرجعون في جذورهم إلى أصل إنساني واحد. والقصد من ذلك أن يدرك الناس هذه الحقيقة ويتعاملوا معها كقاعدة إنسانية وأخلاقية في نظرتهم إلى أنفسهم، وفي نظرة كل أمة وحضارة إلى غيرها كما لو أنهم أسرة إنسانية واحدة على هذه الأرض.

٣- الإقرار بالتنوع الإنساني ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ وهذه

حقيقة اجتماعية وقانون تاريخي. فالله سبحانه وتعالى بسط الأرض بهذه المساحة الشاسعة لكي يتوزع الناس فيها شعوباً وقبائل، ويعيشوا في بيئات وجغرافيات ومناخات وقوميات مختلفة، لكي يعمروا هذه الأرض ويكتشفوا خيراتها ويتبادلوا ثرواتها ويجعلوا منها بيتاً مشتركاً وآمناً ومتمدناً للجميع. علماً بأن القرآن الكريم لم يذكر في كل آياته عبارة (شعوباً وقبائل) إلا في هذه الآية.

٤- خطاب إلى الناس كافة، وتذكير بوحدة الأصل الإنساني، وإقرار بالتنوع بين البشر. فما هو شكل العلاقة بين الناس؟ من بين كل المفاهيم المحتملة في هذا المجال، يتقدم مفهوم التعارف (ليتعارفوا). فتنوع الناس إلى شعوب وقبائل وتكاثرهم وتوزعهم في أرجاء الأرض، لا يعني أن يتفرقوا وتتقطع بهم السبل، ويعيش كل شعب وأمة وحضارة في عزلة وانقطاع. كما لا يعني هذا التنوع أن يتصادم الناس ويتنازعوا فيما بينهم من أجل الثروة والقوة والسيادة، وإنما (ليتعارفوا). ولا يكفي أن يدرك الناس أنهم من أصل إنساني واحد فلا يحتاجون إلى التعارف. أو أن يتوزعوا إلى شعوب وقبائل ويتفرقوا في الأرض فلا يحتاجون إلى التعارف. ولأن التعارف بين شعوب وقبائل أي بين مجتمعات وجماعات، لذلك جاز لنا استعماله في مجال الحضارات الاستعمال الذي نتوصل منه إلى مفهوم واصطلاح (تعارف الحضارات).

٥- إذا انطلقنا من قاعدة التفاضل والمقارنة لنتساءل، لماذا لم تستخدم الآية كلمة)ليتحاوروا) أو (ليتوحدوا) أو (ليتعاونوا) إلى غير ذلك من كلمات ترتبط بهذا النسق، ويأتي التفضيل لكلمة (ليتعارفوا)؟ وهذا هومصدر القيمة والفاعلية في مفهوم التعارف، فهو المفهوم الذي يؤسس لتلك المفاهيم (الحوار، الوحدة، التعاون) ويحدد لها شكلها ودرجتها وصورتها، وهو الذي يحافظ على فاعليتها وتطورها واستمرارها، هذا من جهة الإيجاب. أما من جهة السلب فإن التعارف كقاعدة وفاعلية بإمكانه أن يزيل مسببات النزاع والصدام.

- ٧ -

تعارف الحضارات وتحديات الإنماء المعرفي

إذا أردنا أن نقرّب مفهوم التعارف إلى بعض حقول المعرفة الإنسانية، فإن هذا المفهوم يشترك في نسق معرفي متقارب أو متجاور مع مفهوم التواصل عند المفكر الألماني المعاصر والبارز يورغن هابرماس، الذي حوله إلى فلسفة أطلق عليها (التفاعلية التواصلية)، وهي أكثر أفكار هابرماس شهرة واهتماماً، فقد اختبرها وتوصل إليها بعد دراسة نقدية لكبريات النصوص الفلسفية؛ باتجاهاتها المختلفة في منظومات الفكر الأوروبي، من فلاسفة الأنوار إلى فلاسفة ما بعد الحداثة المعاصرين، وذلك في أشهر مؤلفاته، ولعله الأكثر شهرة في حقله أيضاً، وهو كتاب (القول الفلسفي للحداثة).

وفاعلية التواصل في رؤية هابرماس تعني تجاوز ما يصطلح عليه بفلسفة الذات، والعمل على الوصول إلى فلسفة الآخر. وهذا ما تسعى إليه مقولة التعارف أيضاً التي تتجاوز الذات أو فلسفة الذات إلى بناء الجسور، والوصول إلى الآخر من خلال بناء معرفة وتعارف. والفارق بين المفهومين أن التواصل عند هابرماس يرتبط بحقل المعرفة، أو هكذا حاول ربطه، فتحددت علاقته بالعقل. أما التعارف فيرتبط بحقل الاجتماع، فتحددت علاقته بالمجتمع والجماعة والناس.

أما وجه الصعوبة المعرفية التي تواجهنا في هذا الشأن فهي القدرة على اكتساب الثقة العلمية لمثل هذه المقولات والمفاهيم، والقدرة على بناء القاعدة المعرفية المتماسكة لهذه المفاهيم، خصوصاً وأن العقل الذي يبحث في علم الحضارة وتاريخ الحضارات لم يشهد ازدهاراً وتقدماً في الدراسات والجامعات العربية، وليس معروفاً عن الكتابات العربية تميزها في هذا الحقل، فهي أقرب إلى محاكاة الكتابات الغربية، والتزود بالمعرفة منها، واتباع منهجياتها ومحاولة تقليدها أو الاعتماد عليها. لذلك فإن المفاهيم والنظريات التي تأتي من العالم العربي تواجه تحديات صعبة في انتزاع الاعتبار العلمي والجدارة العلمية ليس من الغرب فحسب، وإنما من داخل العالم العربي أيضاً.

يضاف إلى ذلك الصعوبات المتعلقة بالإنماء المعرفي لهذه المفاهيم والنظريات ذات المنشأ العربي، وإمكانية دمجها في التراكمات

المعرفية، وإحاطتها بالخبرات والتجارب والحفريات الأثرية والتاريخية والحضارية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، مستويات الاهتمام بتناولها بالدراسة والتحليل والفحص والنقد، لغرض إنمائها وتطويرها وإنضاجها. ومن جهة ثالثة، المشاركة بتعميمها وإلفات النظر إليها والدفاع عنها. وهذا ما يفسر عدم قدرة العالم العربي على ابتكار الأفكار والنظريات وإدماجها في المعارف الإنسانية، وفتح النقاش حولها على نطاق عالمي واسع. كما يفسر أيضاً غياب التضامن والإحساس بالمشاركة بين الباحثين والكتاب في العالم العربي.

وأخيراً فإن مقولة (تعارف الحضارات) لا تعني مجرد الاعتراف بتعدد الحضارات وتنوعها، وإنما تستند على ضرورة بناء وتقدم الحضارات في العالم، وتأسيس الشراكة الحضارية فيما بينها، وتبادل المعرفة والخبرة؛ فالعالم ليس بحاجة إلى حضارة واحدة، وإنما إلى استنهاض الحضارات كافة.

الحلقة المفقودة ما قبل تعارف الحضارات

مازم الحداثة وبؤس آلية التثاقف(٭)

إدريس هاني

كان من المفترض أن تحظى فكرة تعارف الحضارات - كما حاول بلورتها الزميل الأستاذ زكي الميلاد بمكانة متميزة - لسببين:

الأول: لأنها جاءت ضمن سياق، لا يزال السجال فيه على أشده، بخصوص إحدى أكبر الموضوعات الإشكالية التي ابتلي بها العصر، وهي مسألة الأنوية الغربية، والطابع القلق للعلاقة بين الغرب والآخر المختلف على أطرافه.

والثاني: لأنها وجهة نظر تستدمج موقف الفكر الإسلامي بما هو أساس الأنا العربية والإسلامية وعنوان لرؤية تنطلق من الذات في تقييم الآخر، نستطيع أن نضع موقفاً كهذا في إطار وجهة نظر (استغرابية)، تتعالى على أن تمتلك ناصية الغرب، بالمفاهيم والرؤى ذاتها التي اصطنعها لنفسه وحدد بها الفكر والنظر.

(٭) نشر هذا المقال في مجلة الكلمة، العدد ٢٣، السنة السادسة، ربيع ١٩٩٩م - ١٤٢٠هـ

والكاتب الذي قدم أطروحته ينتمي إلى جيل حديث من الكتاب ذوي الاهتمام الفائق بقضايا الفكر الإسلامي المعاصر، ومشكلات التجديد والإصلاح. لهذا، ليس غريباً أن نلمح ذلك التداخل الواضح، بين عنصر التحليل وجوانب النقد، وبين سلسلة الأهداف والطموحات التي يطفح بها مشروع تعارف الحضارات. إنما الميزة التي تميزت بها هذه الدراسة، أنها قدمت عنواناً لإشكالية ظلت لفترة طويلة مثار جدل، وبؤرة أساسية لما سيكون عليه مفهوم صراع الحضارات. وهي إذن فضلاً عن ذلك، تتميز بجانب التأصيل والبحث الدقيق في مظان الموروث الثقافي العربي والإسلامي.

يحيلنا الكاتب في البداية إلى عدد من المعطيات المعاصرة التي شكلت الشرط الموضوعي الذي بموجبه تحتم نوع من التقارب المفروض بين الشعوب والحضارات. فالتقدم الذي شهده العالم في مجال الاتصال والمعلوماتية والتكنولوجيا بشكل عام، يسّر عملية التواصل، وعمّق آصرة التقارب على هذا الكوكب، خصوصاً وأن العالم لم يعد يكتفي بالاتصال -كما وفرته ويسرته أدوات الاتصال السريع- بل ارتقى إلى مستوى التواصل الذي فرضته آليات فعل علاقات القوة بين المجتمعات والأفكار على جميع الصعد الاقتصادية والعلمية والسياسية..

إن طفرة كهذه في عالم المعرفة والعلوم، دفعت بالعالم إلى نمط آخر من العلاقات ألا وهو (الكونية)، وهذه الأخيرة جاءت نتيجة تطور

علمي مشهود في ميادين العلوم التجريبية، كما على صعيد البنيات الاجتماعية والعلاقات السياسية. فقد سهل هذا التواصل ظهور المجتمعات المدنية، التي أصبحت تمثل أشخاصاً في العلاقات الدولية - ضمن عنوان الدولة الحديثة - وما تمثله هذه الأخيرة من معنى علاقات القوة، وفكرة العقد الاجتماعي في المجتمعات الغربية، ولا أقل نظرياً في عدد من الأقطار غير الغربية.

إن هذا جميعه يمثل شرطاً ضرورياً وحتمياً لقيام تواصل، ليس فقط بين مجتمعات، بل بين ثقافات مختلفة، وإذا كان ذلك شرطاً موضوعياً لقيام تواصل ثقافي (حضاري) بين الأمم، فإنه من الجانب الآخر، نتج عن تدفق المعرفة والمعلومات والعلوم أشكال من الأزمات، تتعلق بالإنسان في كل أبعاده ومستوياته الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

وكما أشار الكاتب، فإن هذه الحضارات أخذت «تشكل لنفسها منظوراً عالمياً، وتنظر إلى ما حولها بهذا المنظور». وإن كان الرأي الذي تتبناه، لا يرى في الغرب سوى حضارة واحدة تنطلق من بنية ثقافية واحدة، فإننا نعتقد أنها إشارة مهمة جداً؛ إذ إن الغرب، بدأت تظهر شراسته مذ شرع في تكوين رؤية أنوية تستند إلى المفهوم العرقي والتفاضل الحضاري، الأمر الذي انتهى إلى اكتساح العالم الآخر بدافع البحث عن مقومات التفوق في مخزون الآخر وثرواته القومية. هذه الحالة التي لم يكف عنها الغرب، ولو من الناحية

الصورية، إلا بعد صدمة (ألمانيا) الهتلرية وتحدي المحور الذي أوقفه عند حده وجعله يعيد النظر في آليات وأنماط السيطرة.

ولاشك أن متغيرات الواقع الغربي لم تنعكس بصورة إيجابية على طبيعة المنظار الذي حدد به الغرب رؤيته للآخر. فمنذ العصور المبكرة للاحتكاك الغربي بالعالم الإسلامي، كان ثمة موقف محكوم بالعنف والإقصاء. فما إن استعاد الغرب قوته حتى خاض حرباً صليبية لم يخض أعنف ولا أوسع منها في تاريخه كله، ثم تلتها حركة الاستعمار واستيطان الشعوب في الفترات اللاحقة التي أعقبت الاكتشافات الجغرافية. ولا يزال يواصل حلمه في السيطرة على العالم ثقافياً واقتصادياً وعسكرياً.

ورغم أن الكاتب لم يتعرض لهذه الخلفية التاريخية لأزمة الحوار الحضاري بين كتلتين لم تشهدا تعايشاً إلا في المرحلة التي حكم المسلمون فيها عدداً من الحواضر الأوروبية، فإنه ركز على ثلاث وجهات للنظر معاصرة، تختلف من حيث منطلقاتها وأهدافها؛ نظرية (نهاية التاريخ) للياباني المتأمرك فوكوياما، ونظرية (صدام الحضارات) للأمريكي هنتنغتون، وأطروحة (حوار الحضارات) للمفكر الفرنسي المسلم روجيه غارودي.

إلا أن اللافت للنظر من خلال هذا الثالوث الأيديولوجي، الباحث في العلاقات وأنماطها، هو أن هذه الأطروحات الثلاث تنطلق من قلق مشترك، يجسده مأزم العلاقة بين غرب وشرق. فقد

ظل الغرب دائماً يصور الشرق كمصدر للتهديد، كيفما كان نوعه: يابان (البوذية) أو الصين (الكونفوشيوسية) أو الإسلام.

من هذا المنطلق، نقول أن الخلاف بين الأطروحات، هو في وجهة النظر من الآخر، هل هي علاقة احتواء وإدماج ونسخ حسب رؤية فوكوياما، أو علاقة تصادم وتنافر وصراع حسب رؤية هنتنغتون، أم أنها علاقة اختلاف وتجاور حسب رؤية جارودي. نفهم من الأول أن التاريخ سائر باتجاه نهاية محتومة، يكون فيها الاندماج شرطاً أساسياً للتقدم والنمو. فيما توحي النظرية الثانية أن الغرب والشرق، أو بالأحرى الغرب والإسلام، حضارتان لا تلتقيان، وهما محكومتان بصراع أزلي، وأن على الغرب أن يستمر في حذره من الإسلام، ويعمل على مغالبة هذا الكيان، الحضاري بلا شك، المتهيئ لصحوة عارمة في المستقبل. بينما تبقى نظرية حوار الحضارات، دعوة إلى إعادة النظر في الموقف المنغلق للغرب، وأن من الممكن قيام حوار ما بين مختلف الحضارات والثقافات. وتندرج أطروحة غارودي في إطار التيار النقدي الغربي الذي شرع في إعادة النظر في التصور الغربي للعالم، وفي نمط العلاقة فيما بينه وبين أقطار الجنوب. فقد تنامى «في داخل الحضارة الغربية نفسها، وعلى مستوى شرائح فنية وعلمية مختلفة من قمة مجتمع النخبة في الغرب، هذا التيار الواثق من نفسه ومن آرائه في نقد تجربة الغرب الحضارية وما وصلت إليه من تدهور اجتماعي خطير» (تعارف الحضارات، ص٢).

في القسم الذي خصصه الباحث لنقد أطروحة صدام الحضارات لهنتنغتون، والتي رأى فيها نوعاً من التشاؤم وتكريس الصراع، حاول الباحث مقاربة الأبعاد الموضوعية الثاوية في صميم هذه الأطروحة. فهي أطروحة صحيحة من «حيث الواقع الموضوعي الذي عليه العالم اليوم؛ فنوعية الرؤية التي تعبر عنها كل حضارة من الحضارات المعاصرة عن نفسها، وعن رؤيتها للآخر، ينتهي بهذه الحضارات إلى التصادم..» (تعارف الحضارات ص٣).

إن أطروحة كهذه، تعكس توجساً داخل الغرب، من قيام أي حضارة بديلة، قد تزاحم - إن لم نقل تقصي - الغرب عن الريادة. فهنتنغتون، في نظر الكاتب لم يأت بجديد، طالما أن هذا التوجس قديم في ذاكرة الغرب، وكل ما هنالك أن الباحث الأمريكي استطاع بلورتها في إطار مقولة نظرية وتحليل مضطرد.

إلا أن الكاتب، ورغم أنه نحا باتجاه حوار الحضارات التي هي الموقف السليم في العلاقة بين حضارات مختلفة، يعتبر أن تلك حالة متأخرة جداً عما ينبغي أن يكون في هذه المرحلة من عدم توازن الحضارات؛ فالغرب الذي يرى في نفسه كل معاني التفوق والسيادة، لا يجد نفسه في الموقع الذي يسمح له بحوار حضارات مختلفة تقع دونه على شتى المستويات. إن ما ينزع إليه الكاتب هنا، هو أن تستكمل هذه الحضارات، أولاً، إمكاناتها ومقوماتها الحضارية، حتى تكون مؤهلة لخوض حوار مع الغرب. وهنا تحديداً تأتي محاولة (تعارف

الحضارات)، التي سعى الكاتب إلى بلورتها، كمرحلة وسيطة وانتقالية ما بين الوضع الراهن وحوار الحضارات.

وهذا الطرح بقدر ما يحمل في طياته من مضامين واقعية، فإنه يضع الإشكالية كلها على كاهل الحضارات الأخرى. نعم، لعل وضع الثقافات الأخرى، التي تمثل صوراً باهتة - بلغة بردويل - عن حضاراتها، غير مؤهلة لكي تسعى إلى تحقيق حلمها في ظل وضع عالمي تتحكم فيه إرادة رشحت لكبح جماح أي تطور يجري خارج ميدان اللعبة الاحتكارية الغربية. إن الغرب قد لا يمنع أمة من تقدمها، لكنه قد يخلق مئات الحواجز والتحديات، لتأخير نمو أو إجهاض مشروع تقدم، بما يملكه الآن من تفوق لا يقاس بواقع المجتمعات الأخرى. إن حوار الحضارات هو أطروحة ترجح مسؤولية الغرب، بما هو رائد التقدم الحضاري، على النزول (إنسياً) إلى (الثقافات) الأخرى. بينما تعارف الحضارات هو ترجيح لمسؤولية الحضارات الأخرى على مسؤولية الغرب في حقيقة تعثر هذا الحوار.

ونحن هنا قد نخالف نسبياً هذا الرأي، فنرى أن حواراً مع الغرب هو أمر ممكن جداً، ولكن مع غرب ما بعد الحداثة؛ غرب مستهجن لأنويته ومستقبح لمركزية الغرب. وهو شرط أولي لتحقيق حوار مع ثقافات تعيش ضمن كيانات سياسية ضعيفة. إنما المشكلة الرئيسية في هذا الجدل ذي الأهمية الكبرى، هي في أن يبقى الغرب أيسر (الحداثة) بالمعنى الأيديولوجي للعبارة. فطالما أن الغرب السياسي لم

يمد جسوره مع الغرب الأكاديمي الناضج، والمتجاوز لتمركزه، فإن الفجوة ستظل مستمرة إلى آخر شوط في هذا الصراع.

لقد ارتكبت الحداثة أغلاطاً كثيرة تجلت أولى علاماتها في تناولها للإسلام كظاهرة ناسوتية يسيرة الاقتلاع، وكإشكالية معاصرة.. مما أضفى الطابع العنفي على فكر الحداثة ومناهجها.. ويمكن محاصرة أهم تلك الأخطاء المنهجية في العلاقة التعسفية التي أقامتها الحداثة بين الإسلام كرسالة دينية، وبين فكر أوروبة الوضعي، الذي يمثل حصيلة تطور تاريخي، وتشكل ضمن عوامل اجتماعية وسياسية وحضارية.. وقد كانت هذه المحاولة استمراراً لتلك الحرب الساخنة التي خاضها الفكر الأوروبي تجاه الدين الذي أصبح يشكل عدوه اللدود.

ونلاحظ طابع المحاربة ساكناً في ثنايا خطاب الحداثة الموجه لنقد الأديان بشكل عام - مع أنها لم تضبط سوى جوهر النصرانية في إحدى أشكالها التاريخية في أوروبة- ولم تعر الحداثة أي أذن صاغية للنقد الموجه لها من قبل الفكر الديني، في محاولة لتهميش أي فكر آخر لا يصدر عن عقل الإنسان، لا بل عن عقل أوروبة ودغمائيتها.. وقد كان ذلك مخزوناً هائلاً لكل نقاد الحداثة، لولا أن أوروبة كانت قد حاصرته وأمعنت في تهميشه وتشكيل ثقافة معادية له وجاهلة به.

كما اتسعت المغالطة المنهجية في موقف الحداثة، حينما ربطت بكيفية سحرية عجيبة بين الإسلام والمسيحية، واعتمدت الأسلوب

التداولي نفسه، الذي واجهت به خطاب الكنيسة، والطرائق ذاتها، التي كشفت بها عن ثغراته.. مع أن هذا الربط، بكل المقاييس المعرفية المناهجية، يكشف - بالأحرى- عن حس أيديولوجي ملتبس، يعتمد التعميم والسرعة وقلة المعلومات، في بناء معرفي من شأنه أن يحرف رؤية أجيال لاحقة في أوروبة تجاه شعوب كانت بالأمس رافدة لهذا الانبعاث الأوروبي، وملهماً تاريخياً لانعتاق أوروبة من سطوة الكنيسة ذاتها..

ولا يحتاج الباحث أن يحصي ما هنالك من فروق جوهرية بين الإسلام كملهم لحضارة ثقافية وعلمية، وبين كنيسة وقفت بكل بطشها في وجه أي نسيم تقدمي وتنويري، فكانت تمثل نقيض كل انبعاث ثقافي وحضاري، بل إن أوروبة ما كان لها أن تقوم بما قامت به لولا تخلصها من هذا المارد المتلبس باللاهوت. وقد كان العالم الإسلامي، رغم ما يؤخذ عليه من تناقضات داخلية، ورغم ما شهده هو أيضاً من انقسامات مذهبية وطائفية، كان يمثل حالة متقدمة، ومستوى يكشف عن مستقبل أوروبة الرازحة يومئذ تحت نير الطغيان والاستعباد والجهل.. ومن الممكن أن نقول أن كل مكونات العالم الإسلامي كانت تصلح طريقاً لانعتاق أوروبة؛ ذلك أن الإطار المشترك لهذه المكونات كان جميعه يناقض فكرة الاستعباد والكهنوتية والتخلف، وأن التيارات الإسلامية الكبرى سواء كانت سنية أو شيعية أو خوارجية.. كانت جميعها قادرة على انتشال أوروبة من

وهدتها السحيقة. وقد تبين أن الفتوح الإسلامية المتأخرة، رغم أنها لم تجر وفق المعايير النظرية الدقيقة لمفهوم الفتح، كانت تجد نجاحاً كبيراً، بالقياس إلى ما تعانيه الشعوب الأخرى، ولوجود القيم الحضارية داخل هذا الكيان الكبير.

ولم يكن هذا التمثيل هو الغلط الوحيد في مناهج التحليل الأوروبي للإسلام، بل إن المشكلة الكبرى هي في ذلك القدر الضئيل والمغلوط من المعلومات التي أقامت عليها الحداثة موقفها العلمي. وقد كان الاستشراق، وهو من مثل هذه المحاولة الواسعة لدراسة الإسلام وفهمه، يعتمد على تقارير ووثائق رفدته بها البعثات التبشيرية ومؤسسات الاستعمار ذات الطابع العسكري، وكلها لم تكن مؤهلة لفهم موضوعي ونزيه، فضلاً عن أنها انطوت على جوانب كثيرة من الجهل بالإسلام؛ فكراً وتاريخاً. إن التأويل الذي تولاه المستشرقون للتاريخ الإسلامي وفكره، كان يستمد قوالبه من فكر الحداثة وأحلامها، كما يجد مبرراته في اكتساح الآلة الاستعمارية لهذا الجزء من المعمورة، الذي اعتبرته أوروبة هامشاً للاستغلال والاستثمار والتنافس، وأيضاً لنفاياتها البشرية؛ هجرات استيطان، أمريكا مثالاً.

لقد أوجدت الحداثة، إلى جانب أيديولوجيتها، منظومة قيم تحمل في طياتها بذور القيصرية، والتفاضل العرقي والعنف القيمي. ذلك أن الاستعاضة بقيم العقلانية في الموروث التعليمي البطريركي كان قد نحا

بالموروث الثقافي الأوروبي إلى موقف أحادي جعل أوروبة جميعها أسيرة العقل الصناعي، في حين حجّم دور الروح ووظيفة القيم في أطر ضيقة جداً. هذا البعد الواحدي أو المركزي، هو الذي جعل خطاب العقل رهاناً وحيداً لأوروبة الناهضة، وهو ما يفسر لنا طبيعة التشنج القابعة في اللاشعور الغربي تجاه أي حضارة لا تتمركز حول العقل ولا تنحو الاتجاه المادي.

إن هنتنغتون قد أقام نظريته على الواقع الموضوعي من جهة، وأيضاً على التراث المفاهيمي والتصوري للحداثة نفسها التي تتوجس خيفة من أي دين أو حضارة أجنبية تحرفها عن مسارها التاريخي. من هنا، تعتبر نظرية صدام الحضارات التفسير الواقعي، إن لم نقل الوجه الآخر، لأطروحة نهاية التاريخ، وقد يطل علينا فكر ما بعد الحداثة أو البنيوية الحديثة التي خرقت هذا النطاق، كي تحاور كل فكر آخر، وتؤمن بالاختلاف، وتقاطع التاريخ من أجل معانقة الاحتمال، رغم كل ما يمكن أن ينعت به تيار كهذا جارف للمعنى والثوابت، فإنه لا أقل، ردة فعل، يفتح مجالاً للحوار، وفرصة للتثاقف. ويجعل الخطأ الوحيد، أو بالأحرى اللامعنى الوحيد غير المشروع، هو الاستهانة بمكانة الفكر الآخر أو وضع تقسيم امبريالي للثقافات. إنه بتعبير آخر لن يقوم حوار بين الغرب والآخر، إلا إذا تحول النظر من خطاب منهج إلى منهج خطاب. وهذا في نظرنا مرحلة سابقة حتى على (تعارف الحضارات) كما رآها الزميل الأستاذ زكي الميلاد.

نحو رؤية إسلامية لتعارف الحضارات

محمد مراح[1]

تمهيد

مرّت التجمعات البشرية والحضارية عبر تقلباتها التاريخية المديدة بأحوال اتصلت فيها بعضها ببعض، وأحوال أخرى لم يثبت حدوث الاتصالات بينها؛ إذ إن الحضارة عرفت مستقرات مبثوثة على البسيطة في أزمنة متباعدة أو متقاربة، لكنها لم تخضع بالضرورة إجمالاً للصلات والتأثيرات المتبادلة [2]، لكن غلب على كبرياتها مظاهر الاتصال والتأثير والتأثر.

---

(١) أستاذ مساعد بمعهد العلوم القانونية والإدارية، المركز الجامعي بن مهيدي، أم البواقي - الجزائر.

(٢) مؤنس، حسين، الحضارة، (الكويت، جمادى الأولى ١٤١٩هـ، أيلول (سبتمبر) ١٩٩٨م، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ص٢١٩. يجدر التنبيه في هذا المقام بالجهد المعتبر الذي بذله الأستاذ زكي الميلاد في كونه أول من استعمل واختار مصطلح (تعارف الحضارات) بدلاً عن (حوار الحضارات)، ونظّر للمسألة، فلعمله - بعد الله تعالى - الفضل في محاولة مساهمتي المتواضعة هذه في صياغة رؤية في (تعارف الحضارات). انظر كتابه: (المسألة الحضارية).

وقد ميز هذه الاتصالات فترات صراع وتصادم وتفانٍ، وفترات أخرى عرفت فيها العلاقات بين الأمم والحضارات تواصلاً إيجابياً وتبادلاً للمنافع في جو من السلم. وقد أوحت هذه الثنائية (المسالمة والصراع) في الواقع التاريخي والحالي، بطرح نظريات مختلفة، ومتصادمة أحياناً، حول العلاقات بين الحضارات - طبعاً إذا تجاوزنا صورة الدولة القومية ذات المقومات المحددة - من النواحي الواقعية والتوقعية والقيمية المبدئية، وأشهر الأطروحات في هذا المجال (صراع الحضارات) و(صدام الحضارات) و(التعايش السلمي) و(حوار الحضارات).

وانطلاقاً من مسلمة (قدرة الإسلام الدائمة على تقديم البدائل والحلول من خلال أحكامه ومبادئه وتجربته الحضارية للمشكلات الإنسانية الكبرى)، رأينا أن نسهم في ملاحقة ملامح الرؤية الإسلامية للعلاقات بين الحضارات؛ برسم الأهداف والمرتكزات وتعرف البواعث والمؤيدات، وتتبع المعوقات وسبل تذليلها، وقبل هذا كله نذكر أهم مبررات استهداف هذه الصيغة - صيغة الرؤية الإسلامية لتعارف الحضارات - بالتنظير والصياغة.

مبررات التنظير لتعارف الحضارات

أبرز المبررات التي دعتنا لهذا التنظير هي:

١- ما يمثله مبدأ التعارف والتعاون والتحاور بين الحضارات من كونه مبدأً استراتيجياً في الإسلام، ورد التعبير عنه في القرآن الكريم واضحاً قاطع الدلالة.

٢- الحاجة إلى صياغة بديل إسلامي عن نظريات الصراع والصدام بين الحضارات التي طغت على الخطاب السياسي والفكري والفلسفي والإعلامي حتى الشعبي، خاصة في الظروف الحالية التي يمر بها العالم. فرغم القطع الإسلامي بأن البديل عن ذلك هو الحوار بين الحضارات، إلا أن رسم ملامح الرؤية الإسلامية لهذا الحوار ووضعه في إطار جامع وصيغة متكاملة ما زالت في حاجة إلى جهود معتبرة حتى تصبح المسألة أقرب ما تكون إلى نظرية في (حوار الحضارات) أو (تعارف الحضارات)، تبسط إلى جانب النظريات الدائرة في ساحات النقاش والرأي.

٣- ما أشار إليه بعضهم من ازدهار نزعة اعتماد الحضارة وحدة للبحث، وتصاعدها في العلاقات العالمية(١)، مما لا يصح معه أن تعرض بدائلنا ورؤانا للقضايا متثورةً عبر أفكار وسوانح؛ خاصة أن الحضارة التي ننتمي إليها ونعبر باسمها ازدهرت فيها الصيغ المذهبية والتنظير الفكري الجامع المتماسك.

٤- إن الضمير الإنساني كانت تكونه في القرن العشرين الحوادث العالمية، وتلصق به تبعاتها ويتحملها، وتتحدد بعض مصائر كل جماعة من جماعاته خارج حدودها الجغرافية(٢)، أما في القرن الحادي

(١) الدجاني، أحمد صدقي، (آفاق التعاون بين العالم الإسلامي والمجتمعات الأخرى واستشرافها بالحوار)، الرباط -المغرب، مجلة (الإسلام اليوم) العدد ١٢، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م، ص٣٥.

(٢) بن نبي، مالك، مشكلة الثقافة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، بيروت، دار الفكر، دون تاريخ ورقم الطبعة، ص١٧٧.

والعشرين فيبدو أن مصائر جماعاته (البشرية قاطبة) كلها تتحدد داخل حيزها الجغرافي بعد أن يكون معنى الحدود قد رحل مع القرن العشرين، فهذا ما تعد به أطروحة العولمة وثورة الاتصالات، فمن الواجب إذن إسهامنا في تحديد هذه المصائر.

٥- لقد جاءت أحداث ١١ أيلول (سبتمبر) في الولايات المتحدة الأمريكية لتضعنا نحن المسلمين والحضارة الإسلامية في قلب الحدث العالمي في جميع تجلياته، فأصبح - مثلاً - التعرف على الإسلام بمثابة ندوة أمريكية كبرى عن الإسلام، وتمثل ذلك أيضاً في الندوات الأكاديمية والمناقشات المتلفزة والإذاعية وكثير من المقالات في الصحف[١]، فينبغي علينا استغلال هذا الجو العالمي وهذه المأساة لبناء علاقة جديدة مع الآخر لا تنطلق من عداء تاريخي، وإنما تتبنى تعاوناً جدياً يعتمد على الاحترام المتبادل[٢]. ولا بد لتحقيق هذا الهدف من ضبط مفاهيمنا وتصوراتنا للشكل الذي يسير عليه حوارنا وتعارفنا مع الحضارات الأخرى، فالحديث عن الإسلام وحضارته والمسلمين في العالم أصبح جده جداً وهزله جداً.

---

(١) مقصود، كلوفيس، (التطورات الأخيرة في الولايات المتحدة وانعكاساتها العربية)، حلقة نقاشية، بيروت - لبنان، المستقبل العربي، العدد ٢٧٢، ١٠، ٢٠٠١م، ص٣٢.

(٢) جرجس، فواز (حلقة نقاشية)، المستقبل العربي، العدد نفسه، ص٢١.

ضبط المفاهيم

الحوار هو المصطلح الشائع الاستعمال في ساحات التداول الفكري والديني والسياسي، فيقال: (الحوار الإسلامي - المسيحي) و(الحوار العربي - الأوروبي) و(حوار الحضارات) وهو ميدان حديثنا، وقلما يستعمل مصطلح (التعارف) إلا معطوفاً على (الحوار) أو على اعتباره غايته وهدفه، مما قد يوحي بالترادف بين الكلمتين في الدلالة على المراد، وإن تمايزا فبقدر يضيق عن استقلال كل بدلالته. فهل هما كذلك في الدلالة اللغوية، وفي الوضع الاصطلاحي، خاصة ضمن الرؤية الإسلامية ومع ملاحقة الاستعمال القرآني (للتعارف) في الآية ذات الصلة بموضوعنا؟.

فالحوار: - ومنه التحاور - يفيد تراجع الكلام والتجاوب، كما يقال: قلقت محاوره أي اضطرب أمره[١]. وقد أورد الزمخشري وهو يشرح قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ [الكهف: ١٨/ ٣٧]، أن (يحاوره) بمعنى يراجعه الكلام من حار يحور إذا رجع، وسألته فما أحار كلمة[٢]، فكأن الحوار هنا يفيد إلزام الحجة وقطع السبيل عن رد مقنع ذي بال، وإن اتسع المعنى اللغوي

(١) آبادي، الفيروز، القاموس المحيط.

(٢) الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل ٢/ ١٨٤، بيروت- لبنان، دار المعرفة، دون تاريخ ولا رقم الطبعة.

للمشاركة والجواب (التجاوب) ورد الكلام وتداوله (مراجعته).

أما (التعارف) فمن المعرفة والعرفان، وهما يفيدان إدراك الشيء بتفكر وتدبر لأثره. والعارف والعريف والعروفة من يعرف الأمور ولا ينكر أحداً رآه مرة[١]، والتعارف مزيج من التعرف والتعريف.

فإن التقى اللفظان في معنى (المشاركة) إلا أن (التعارف) أسد وأبلغ في القصد مما يرتجى من موضوع (حوار الحضارات) والمفاهيم التي تعرض في سياقه. فما المقصود بالحوار في الوضع الاصطلاحي؟.

يميز حامد ربيع بين مفهومين للحوار أخذاً من الواقع التطبيقي، الأول: هو الأسلوب المنطقي للبحث عن الحقيقة التي تواجه الحجةُ فيه الحجةَ، من خلال معارضة منطقية تعبر عن النفي المؤدي إلى النفي نفسه، غايته المنهجية الكشف عن الحقيقة، ومجاله التعامل الفكري والجدل المنطقي المبدع. أما الثاني: فهو المسلك التفاوضي للتعامل الدولي، تسيطر عليه مفاهيم المصلحة القومية، ولغة الأخذ والعطاء بدافع تطويع الإرادات المتعاملة، ويصبح الحوار وسيلة للحصول على تنازلات[٢].

لكن إذا استبعدنا المعنى الثاني في موضوع بحثنا، فلا تفوتنا

---

(١) الزبيدي، السيد محمد مرتضى، تاج العروس.

(٢) ربيع، حامد، الحوار العربي الأوروبي، ص١٩، بغداد، العراق، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

ملاحظتان، الأولى: أن دلالة استعمال (الحوار) للمعنيين، هي ملاحظة الأساليب الخفية المستترة الرغبة في تطويع واستيعاب الآخر. والثانية: أن الحوار يفيد تبادل وجهات النظر بقصد الوصول إلى حد أدنى من التقابل حول مفاهيم مشتركة[١].

فرغبة الاحتواء إذن بادية في معنى الحوار، وكذلك إلزام الحجة والغلبة المنطقية، وإن لزم أحياناً الكشف عن الحقيقة وسد مسالك المحاور إلى الباطل، إلا أن رغبة التطويع - وإن كانت للحق - تبقى دائماً حاضرة في جو الحوار.

أما (التعارف) فيأخذ من تعريفه منحيين، الأول: إن كان داخل الدائرة الإسلامية فيفيد «رجوع الكثرة من الأفراد، على تعددهم العرقي والقبلي، إلى وحدة متعاونة على ما يكون به قوام الحياة الجماعية، وما يكون به تحقيق أغراضها، متوجهة في ذلك توجهاً سباقياً للاقتراب من الله تعالى لتحقيق أوامره، وتلك هي التقوى هدف التعارف»[٢]، وهذا المنحى مستبعد - بالطبع - من موضوعنا. أما المنحى الثاني: فتدور فيه فكرة (التعارف) حول التسليم؛ ابتداء بإبعاد نزعة التفوق الحضاري أو الثقافي، والإيمان بأن لكل ثقافة أو

(١) المرجع نفسه، ص١٩.

(٢) النجار، عبد المجيد، الاستخلاف في فقه التحضر، ماليزيا، الجامعة الإسلامية العالمية، مجلة (التجديد)، يناير ١٩٩٧، رمضان ١٤١٧هـ، العدد الأول، السنة الأولى، ص١٠٣.

حضارة ما تقدمه للثقافات والحضارات الأخرى، وهي بدورها في حاجة للأخذ من غيرها[١]، ويتم تحصيل ذلك عبر عمل منهجي مستمر تحتضنه مؤسسات خاصة ومناسبة، تتلاشى لدى مؤطريه نزعة المركزية وروح الغلبة والمنة، ويتشوفون للتلاقي والتآلف والتعاون الإيجابي.

إننا إذ نختار مصطلح (التعارف) للتعبير عن رؤيتنا الإسلامية حول إنجاز هذا التوجه الحضاري الواعد، نقدم بين يدي اختيارنا الاعتبارات الآتية:

١- دلالة (التعارف) على عمق ارتباط الصلات الإنسانية أدق من دلالة (الحوار).

٢- (الحوار) لا يقتضي - ضرورة - (التعارف)، بينما هذا يفيد حصول (الحوار) قطعاً.

٣- (الحوار) باب و(التعارف) أداته.

٤- (الحوار) لا يلزم معه المصير إلى غايات أعمق في العلاقات الإنسانية، إذ قد لا يجاوز المستويات السطحية في تلك العلاقات، بينما (التعارف) - للازمة معنى المشاركة له - منفتح على جل أو كل

---

(١) نافعة، حسن، العرب واليونسكو، ص١٥٥، الكويت، رجب ١٩٠٤هـ، آذار (مارس) ١٩٨٩م، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

مستويات العلاقات الإنسانية، فتنتج عنه مستلزمات كثيرة لعل أهمها: التعاون والتآلف والإرشاد والاسترشاد.

٥- (التعارف) ومقتضياته دعوة للعودة إلى الفطرة البشرية واستجابة لمطلبها الأصيل، و(الحوار) أداة معبرة عن الحق والباطل، وعن تطلعات الفطرة والعقل وحاجات الغرائز.

٦- (الحوار) قد ينقضي مع استنفاد أسبابه وملابساته، أما (التعارف) فتثبت معه آثار التعرف ولا تنكر بعده أبداً.

٧- (الحوار) يحمل رغبة ما في الاحتواء، أما (التعارف) فيفيد حصول مستلزماته، وإن بقي كل في ساحة قناعاته واختياراته.

٨- إن (التعارف) هو الذي يحدد مستويات (الحوار) والتعاون ويثريهما، ويثمرهما، كما أن للتعارف دوراً وقائياً في منع النزاع والصدام على مستوى الأمم والحضارات، لهذا فإن اختيار مفهوم التعارف الذي بني عليه مفهوم تعارف الحضارات، هو أكثر دقة وفاعلية[1].

٩- الانحياز للمصطلح القرآني ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾.

(١) الميلاد، زكي، المسألة الحضارية، ص٧٦-٧٧، بيروت، لبنان، ط١، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٩م.

مشروعية تعارف الحضارات

إن الآية التي شرعت لهذا التعارف والتي هي مدار الطرح في هذا البحث هي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ٤٩/١٣]، فاختيار الله تعالى في خطابه مصطلح (التعارف) دون غيره مقصود؛ فإضافة لما ذكرنا من قبل، فإنه أشد ملاءمة لطبيعة المجتمع الإنساني وارتقاء التعارف بين طبقاته شعوباً وقبائل وأمماً، إذ يحصل هذا التعارف «طبقة بعد طبقة متدرجاً إلى الأعلى. وهكذا تتعارف العشائر مع البطون والبطون مع العمائر، والعمائر مع القبائل، والقبائل مع الشعوب؛ لأن كل درجة تأتلف من مجموع الدرجات التي دونها»(١)، وأنسب له أيضاً من جهة توزيع الأعمال وحصول المنافع «فكان هذا التقسيم نظاماً محكماً لربط الأواصر دون مشقة ولا تعذر، فإن تسهيل حصول العمل بين عدد واسع الانتشار يكون بتجزئة تحصيله بين العدد القليل ثم يبث عمله بين طوائف من ذلك العدد القليل ثم بينه وبين جماعات أكثر. وهكذا حتى يعم أمة أو يعم الناس كلهم، وما انتشرت الحضارات المماثلة بين البشر إلا بهذا الناموس الحكيم»(٢).

---

(١) بن عاشور، محمد الطاهر. التحرير والتنوير، ص٢٥٩، الجزائر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب والدار التونسية للنشر، ج٢٦، ١٩٨٤م.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٦٠.

كما تتأكد لدينا أيضاً قصدية وخصوصية اختيار مصطلح (التعارف) لفعالية مفهومه - كما ألمحنا سابقاً - في إدراك الغاية من مستلزماته، كالتعاون وتبادل المنافع ونبذ حب الغلبة والاستئثار والأنانية والاستعلاء والتصادم والصراع. ثم إنه بالغ بكل إدراك ما لدى الآخر من خير يرغب أن يشاركه فيه، وما يتخبط فيه من مشكلات يقترح عليه حلولها، أو شرور تحيط به يرشده لمضارها ويدله على سبيل الخلاص منها، كل ذلك يتأتى بحسب مستويات الحوار ومنهجيته العلمية والفلسفية التي ينساب عبرها التعارف.

مرتكزات تعارف الحضارات

لا تتحقق فعالية (التعارف) إلا إذا أسندته مرتكزات ومبادئ تتناسب مع سموه وحسن مقصده، والرؤية الإسلامية توفر لنا مجموعة من المرتكزات والمبادئ السامية هي:

١- وحدة الأصل الإنساني التي عبرت عنها آية الحجرات، وأكدتها الأحاديث الشريفة.

٢- مبدأ وحدة الإنسانية الجامع؛ فالملاحظ أن خطاب الله تعالى في الآية الكريمة (آية الحجرات) توجه للنوع الإنساني في عمومه، فلم يخص جنساً بعينه، والمقرر لدى المفسرين أن «كل نص قرآني ابتدأ النداء فيه، يا أيها الناس، يكون الخطاب فيه للناس جميعاً، غير مختص بقبيل دون قبيل، لأن العنوان فيه للإنسانية كلها، فكل من

يتصف بها داخل في الخطاب»[١]، وغني عن البيان أن هذه النزعة الإنسانية ظلت مطمح البشرية في أغلب مراحل تاريخها، خاصة حين تظلها حضارة، ولقد حامت حول هذا المقصد مذاهب فلسفية وديانات وفنون، لأنه تعبير عن حاجة فطرية في الإنسان ومحاولة ارتداد إلى ما كان عليه الناس في مبتدأ الخلق، كما صرح بذلك القرآن الكريم: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢١٣]، فإن يكن اختلافهم وتفرقهم وتنازعهم حصل بعد تنازع الهداية والضلال لهم، فإن في التعارف الحضاري ما يهديهم - بإذنه تعالى - إلى شكل من أشكال التقارب الإنساني، يذكرهم بأصلهم الأول ويرشدهم إلى دلائل الهداية وأسبابها.

٣- الاختلاف في الألوان واللغات آية من آيات الله تعالى وسنة من سننه الكونية، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الروم: ٣٠/ ٢٢]، ومما يتسق مع مقتضى هذه الآية والسنة

(١) أبو زهرة، محمد. المجتمع الإنساني في ظل الإسلام، ص٤٨، الجزائر، ط٢، ديوان المطبوعات الجامعية، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

الكونية الإلهية معتقداً وسلوكاً وعملاً ألا ينقلب هذا الاختلاف إلى عوامل تفرق وعنصرية واستبعاد وتناحر، بل التسليم بالحقيقة الواقعية والبحث عما في جوهر الإنسان، روحه وإنسانيته مما يقربه من أخيه الإنسان، وينفع كل منهم أخاه بما قدر له من خيرات يعيش عليها، أو ابتكار أو علم اهتدى إليهما.

٤- المحبة، إن التسليم بوحدة الرحم الأولى يفترض أن يثير في الإنسان تجاه أخيه الإنسان مشاعر نبيلة سامية كالمحبة، فهي «أثمن ما في الوجود، وإن حاجة البشر إليها أعظم من حاجتهم إلى كل ضروريات الحياة، فإنهم إذا توفرت لهم ضرورة الحياة وحاجياتها وكمالياتها ثم حرموا من المحبة عاشوا عيشة التناكر والتقاطع، وكانوا على بعضهم شراً من الوحوش الكاسرة والحشرات السامة، وإذا رزقوا المحبة مع ما لا بد منه من لوازم الحياة عاشوا عيشة تواد وتعاون، وكانوا على بعضهم خيراً وبركة، فهم لا توزن سعادتهم وشقاؤهم في هذه الحياة إلا بقدر ما بينهم من المحبة»[(١)].

٥- حرية الاختيار، ذلك أن التعارف لا يستطيع أن يمضي أبعد من أشواطه الأولى وبداياته إن بدت نية فرض الاختيارات، ولهذا نلاحظ كيف أسس الإسلام قبول عقيدته على حرية الاختيار، فلا إكراه في الدين، فمن باب أولى لا إكراه في الرأي والاختيار، وقد

---

(١) بن باديس، عبد الحميد. آثار ابن باديس، ٦/٢١٦، الجزائر، ط١، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

علمنا الله تعالى من خلال كتابه الكريم الدرس البليغ في قبول الرأي الآخر حين «خلد الرأي الآخر وحكم بأن قراءته ذكر وبركة تزكي قارئه وترفع شأنه عند خالقه»[1]، وهو ركيزة فكرية ذات أثر نفسي بعيد ينعكس إيجاباً على مسار تعارف الحضارات.

بواعث تعارف الحضارات

تنبع هذه البواعث من طبيعة الرسالة الإسلامية في العالم، فالتعارف الحضاري يوفر الإطار الملائم لأداء واجبات شرعية، وإبراء الذمة، وتقديم العلاج، كما يساعد على تجسيد صفة عالمية الثقافة والحضارة الإسلامية، وأهم هذه البواعث هي:

١- باعث الدعوة والهداية، فإن كل خطابات البلاغ التي وجهها الله تعالى لرسوله (ﷺ) انتقلت مقتضياتها إلى أمته من بعده، ولهذا لزم علينا «أن نسعى أبداً للآخرين نحاورهم ونجادلهم وندخل في عقولهم فنتفهم بعض ما فيها ونطرد منها البعض، ونهدي لهم بعضاً من قيمنا ومبادئنا ومعانينا الرسالية»[2]، ولو لا هذا البعد في الرسالة الإسلامية لما كان هناك شيء في التاريخ اسمه الحضارة الإسلامية.

---

(١) نويري، إبراهيم. (مركزية الحضارة الغربية ومستقبل الحضارة في القرن ٢١)، محاضرة مخطوطة.

(٢) الترابي، حسن عبد الله، مرتكزات الحوار مع الغرب، مجلة الإنسان، باريس، فرنسا، العدد ١٣، السنة ٠٣، شوال ١٤١٥هـ، آذار (مارس) ١٩٩٥م، ص٣٠.

٢- باعث الشهادة على الناس، فقد أناط الله تعالى بهذه الأمة مسؤولية الشهادة على الناس، في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ٢/١٤٣]، فإن يكن من البدهي أنها لا ترقى لمستوى هذا التكليف إلا بعد أداء واجب البلاغ، فإنها لا تحقق هذا ولا تستوعب مقتضيات ذاك إلا إذا انطلقت في «دورها المميز، من موقع الوعي والشمول لكل المساحات الأخرى على مستوى العالم، بحيث تتعرف اتجاهاتها وأوضاعها وحركاتها وأساليبها وأهدافها وعلاقاتها، لتستطيع رصد نقاط الضعف والقوة، والاستقامة والانحراف لديها، لتملك الحصول على المعرفة الشاملة، التي تجعلها في موقع الشاهد الحي الواعي، الذي يعيش الحضور الواسع لكل التطورات والمتغيرات في كل جيل، لأن ذلك وحده هو الذي يجعل للشهادة عمقاً وامتداداً وسعة على جميع المستويات. وعلى هذا الأساس سوف يفتح لها آفاق المعرفة الواسعة، ويقترب بها من كل حركة الأحداث، ويهيئ لها الثقافة الشاملة التي تلتقي بكل مفردات الواقع الإنساني»(١)، وهذه الحقيقة هي واحدة من أعمق مستويات تعارف الحضارات وأدق مسالكها.

(١) فضل الله، السيد محمد حسين. (تأملات في كلمة الأمة في القرآن)، مجلة المنطلق، لبنان، العدد ٧٠، ربيع الأول ١٤١١هـ، أيلول ١٩٩٠م، ص١٥-١٦.

٣- الانفتاح على العالمية، فالانغلاق والعزلة مجافيان لطبيعة الإسلام الحركية الاتصالية المتطلعة للقاء والتعارف، كما أن التقدير السليم للأمور والأفكار يتطلب أكبر قدر من الانفتاح على العالمية، «فالضمير الإنساني الذي لم يألف العمل على حدود الثقافات. تسيطر عليه عادات جذبية مزمنة تحمله على أن يرى الأشياء من زاوية ضيقة»[١]، تحرمه من التواصل الحضاري وممارسة دوره الثقافي والحضاري في مسيرة التعارف الحضاري.

٤- باعث تقديم العلاج لأزمات العالم الروحية والعلمية والأخلاقية والفكرية؛ فالاتجاه الفكري السليم، القائل بأن الإسلام هو المنقذ للواقع الحضاري القائم، في تصاعد مستمر.

أهداف تعارف الحضارات

ضبطاً لمسار التعارف نرصد أهم الأهداف والغايات التي يسعى لتحقيقها وفق الرؤية الإسلامية:

١- التقارب والتسامح؛ فالتعارف الإيجابي هو الذي يبذل فيه كل طرف أقصى جهوده للتعرف على ما يقربه من الطرف أو الأطراف الأخرى التي تشاركه التطلع نفسه، فيبحث القائمون بالتعارف والتحاور في ثقافاتهم وحضاراتهم عما يقرب بينهم من الأشواق والآمال، والانجذاب نحو كل ما هو إنساني معبر عن جوهر الإنسان

(١) بن نبي، مالك. مشكلة الثقافة، ص١٤٢.

وفطرته، فمن شأن البحث المخلص عن هذه الأسباب أن تمتد أرض الوفاق بين الحضارات، وتتشبع الإرادات بقابلية التجاوز والتسامح، وقد ضرب الإسلام - عبر تواصل حضارته مع الحضارات الكبرى في العالم - المثل الرائع في تجسيد هذا الهدف النبيل، وبفضل الروح العالية من التسامح تجاوز عتبة التقارب إلى احتضان أكثر ما هو مفيد في الثقافات الأخرى، وتمثله بعدئذ حضارة خالدة أنارت العالم في قرون ظلامه.

٢- التعايش السلمي، من شأن الهدف السابق توفير الأجواء المناسبة لتعايش الحضارات في سلام وأمن. والحقيقة أن هذا الهدف يتطلب تعميقاً بالغاً لفلسفة السلام وأفكاره، وتفكيراً جاداً للخروج بالمسألة من حسابات ومصالح السياسيين والعسكريين، وأصحاب المنفعة من صناعة التسليح، وخدام نظريات الحرب وتفجير بؤر التوتر في العالم، إلى ساحات التوعية العامة واصطناع جماعات الضغط من دعاة السلام العالمي العادل في كل حضارة بل في كل مجتمع، فتسود المجتمع الدولي ثقافة حضارية تمنح فكرة السلام صورتها الحقيقية، بأن تضمن وضعها في ذمة المبادئ[١]، لا لمصالح مروجي الدمار وحساباتهم ليثروا ويطغوا.

٣- فك عقدة الهيمنة وتجاوز عقيدة الصراع، حيث من العناصر

---

(١) المرجع نفسه، ص١٨٧-١٨٨.

المكينة التي انبنت عليها الحضارة الغربية الحديثة، الصراع والهيمنة؛ فأنتجا كل أشكال الإذلال والاستعباد والحركة الاستعمارية، وترسنة الأرض والبحر والفضاء بالأسلحة المهلكة للحياة والأحياء. والجشع؛ وخلق أسوأ معادلة في الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية الدولية، معادلة العالم الغني غنىً فاحشاً والعالم الفقير المتخلف، بل وتزويد المبادئ والآليات والتوجهات والممارسات الاقتصادية العالمية بما يحافظ على استقرار هذه المعادلة، فإن حدث أن تحركت نحو اتجاه التوازن الإيجابي، فإما أن تتحرك باتجاه محسوب ومرصود لا يشرف على الغاية، أو أن تواجه بالعراقيل والمنع حتى القمعِ المقنن عند الضرورة، حفاظاً على نظام التبعية؛ العمود الفقري للنظام الاقتصادي الدولي، فلقد فُرض التخلف واستمراره بالقوة على العالم لمصلحة تنمية الغرب وحده[١].

أما الصراع فما يزال المحرك الأساس لسياسة الغرب وأكبر اتجاهاته ومؤسساته في العلاقات الدولية، وأفضل نموذج له السياسة الأمريكية القائمة على ضرورة خلق العدو - وإن لم يوجد - (الشحذ الوجدان الجماعي المستمر. الذي يسمح للفرد بنعمة الحرية الشخصية

(١) غارودي، روجيه. حوار الحضارات، ترجمة: الدكتور عادل العوا، ص٨٩، بيروت، باريس، ط٢، منشورات عويدات، ١٩٨٢م، لمزيد من التفصيل، انظر الفصل التحليلي الرائع (الغرب عرض)، في: غارودي، المرجع نفسه، ص٣٧-٩٤.

والحركة الاقتصادية، والرفاه والعدل، فهو مهدد دائماً بعدو ما يريد أن يقضي على ما يسمى (بنوعية حياتنا Our Way Of Life أو أحياناً The American Way)[1]، هذا الثابت في سياسة الغرب وكثير من أسس اتجاهاته الفلسفية والفكرية، يتطلب لتجاوزه - على المستوى الفكري ابتداء - لقاءات ومحاورات مستمرة بين النخب المفكرة لشتى الحضارات والمجتمعات المعاصرة، تراجع فيها الكثير من المفاهيم التي أصبحت من المسلمات في المنظومات الفكرية الغربية، والتخلي عن نزعة الاستئثار بتحديد المفاهيم، كالديمقراطية وحقوق الإنسان والحرية والتطور والتنمية وغيرها.

٤- معرفة الآخر على حقيقته وتصحيح الصورة المسبقة عنه، فكثيراً ما رسمت الحضارات صوراً نمطية لغيرها من الحضارات، فلا تنظر إليها إلا من خلال تلك الصور، وتخضع حسابات التعامل معها لمقتضاها. وكثيراً ما تكون تلك الصور مغلوطة لأسباب لا ينفسح المجال لبحثها، صحيح أن البحوث الجادة المنصفة والحيادية كثيراً - أيضاً - ما تكشف عن حقيقة الصورة الحضارية الصحيحة لحضارة ما، لكن تبقى سلطة تأثير وتوجيه الصور النمطية، ومن ثمة تحديد السلوكيات، هي المهيمنة.

ونعتقد أن إقبالاً مخلصاً على الدفع بمشروع تعارف الحضارات

---

(١) شرف، ليلى. حلقة نقاشية، المستقبل العربي، العدد السابق، ص١٤.

سيؤدي خدمة جليلة للإنسانية؛ فيتعرف كل على صورة الآخر كما هي. وهذا التوجه تعليم رباني كريم لنا نحن المسلمين، إذ نحب أن يتعرف علينا الناس ونتعرف على الناس، فلدينا الكثير الذي نحب أن نقوله[١]، وعلى هذا النحو يحمل الأمر بمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، والالتقاء بيننا وبينهم على كلمة سواء، وقولنا للناس حسناً، وغيرها من التوجيهات الربانية الحكيمة. ويجدر بنا ملاحظة أن ديننا الذي أذن لنا بهذا الحوار والتعارف والجدل في مسائل الاعتقاد وفي غيرها من القضايا أوْلى بمثل هذا التناول والمقاربة، خاصة وأن مصائر الناس في العاجلة تشترك في قضايا كثيرة تلح أكثر من أي وقت مضى على فك الاشتباك حولها.

ويعد خطاب الأمير تشارلز ولي العهد البريطاني في هذا المضمار من أرقى وأنضج الخطابات الصادرة من الغرب؛ فقد قال في كلمة ألقاها في مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية عام ١٩٩٣م: «إذا كان الغرب يسيء فهم طبيعة الإسلام، فما زال هناك جهل كبير حول ما تدين به حضارتنا وثقافتنا للعالم الإسلامي، إنه نقص نعانيه من دروس التاريخ الضيق الأفق الذي ورثناه، فالعالم الإسلامي في

(١) الغزالي، محمد، (الإسلام والثقافة العربية في عالمنا المعاصر)، مجلة إسلامية المعرفة، واشنطن، الولايات المتحدة الأمريكية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، العدد السابع، السنة الثانية، رمضان ١٤١٧هـ/ يناير ١٩٩٧م، ص١٥١-١٥٢.

القرون الوسطى من آسيا الوسطى إلى شاطئ الأطلسي كان يعج بالعلماء ورجال العلم، ولكن بما أننا رأينا في الإسلام عدواً للغرب، وكثقافة غريبة بنظام حياتها ومجتمعها، فقد تجاهلنا تأثيره الكبير على تاريخنا. لم يعد باستطاعة العالمين الإسلامي والغربي البقاء بعيدين عن بعضهما البعض، وعدم الاشتراك في جهد مشترك لحل مشاكلهما المشتركة. إننا لا نستطيع العودة إلى الخلافات والتحديات الإقليمية والسياسية الماضية. يجب أن نساهم معاً في خبراتنا، وأن نشرح أمورنا كلٌّ للآخر، لنتفهم ونتسامح ونتحمل معاً»[(١)]، فهذه التوجهات في الغرب كثيرة، وتعد نواة صالحة للتشجيع والتطوير والتعميم على أجواء خطوات واعدة لتعارف الحضارات.

ومن النتائج المنتظرة لهذا السلوك الحضاري، أن يدفع إلى الأمام وبشكل إيجابي معالجة عقد الاستعلاء والحقد والتخلف واللاإنسانية، فمن مهام التعارف الحضاري وأهدافه - إذن - التي ينبغي أن تكون محل عناية شديدة من جانب النخب المتعارفة والمتحاورة؛ الارتفاع بمستوى مجتمعات ما بعد الاستعمار المتخلفة إلى مستوى الحضارة، والارتفاع بمستوى الرجل المتحضر الملطخ بإثم الاستعمار إلى مستوى الإنسانية[(٢)].

---

(١) انظر، الحرس الوطني، المملكة العربية السعودية، العدد ١٦٤/ ١٦٥، ص٩٩.

(٢) بن نبي، مالك. مشكلة الثقافة، ص١٧٩.

فمن الملاحظ أنه حتى وإن زال الاستعمار القديم عن مختلف مستعمراته وأغلبها، فإن أشكاله الجديدة والمتجددة في تزايد، ممعناً في تحقيق مآرب الفئات القارونية العالمية تحت مظلة العولمة الرجراجة. فهذا الوضع العالمي الذي سيسمح باستمرار مأساة الإنسانية الاجتماعية والاقتصادية، لن يزيد سوى من تأجيج مشاعر حقد الصغار المستضعفين، واحتقار الكبار المستكبرين، وهي مشاعر تجافي استقرار الحضارة والسلم العالمي، وتنذر بالعنف والعنف المضاد.

٥- تشجيع فكرة الانتفاع المتبادل من خيرات الأرض من خلال فكرة التعاون؛ فالرؤية الإسلامية لهذا الهدف تنطلق من عقيدة أن الله تعالى لم يخلق الأرض لنتهارش عليها ونسفك الدماء، بل خلقها لنرتفق خيره ونشكره عليه [١]، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ٦٧/ ١٥]، وقد عبر الفقه الإسلامي المعاصر عن هذه الغاية السامية الرشيدة وهو يعرض كنوز مبادئه وقيمه الإنسانية المقربة من أخيه الإنسان، فالتعارف «يجعل كل فريق ينتفع بخير ما عند الفريق الآخر، وتكون خيرات الأرض كلها لابن هذه الأرض وهو الإنسان، فلا يختص فريق بخير إقليمه ويحرم منه غيره، فإذا كانت الأرض مختلفة فيما تنتجه فالإنتاج كله للإنسانية كلها، ولا سبيل لذلك إلا بالتعاون والتعارف الإنساني، فالتفرقة

---

(١) الغزالي، محمد. المرجع السابق، ص١٥٢.

الإقليمية لتستغل الأرض في كل أجزائها وكلها للجميع»(١)، وهذا التوجه يخالف - كما هو بين - سلوك الحضارة الغربية القائمة على أبشع صور الاستغلال، وتبريره بدعاوى التقدم والواقعية ورفاهية الإنسان الغربي، بل والتعاون الإنساني، وتقديم المساعدات والمعونات الدولية، وفرض صرامة القانون الدولي، وغيرها من الشعارات المسوقة بقوة الإعلام والسياسة والسلاح.

وإن مهام النخب المؤمنة بتعارف الحضارات أن تصب جهودها الفكرية والعلمية والإعلامية - وهي مجالات تحركاتها - إلى كشف هذه التزييفات للرأي العام الغربي الواقع تحت طائلة التضليل الإعلامي خاصة، واستغلال الأحداث التي تصنع الأوقات العالمية كحادث ١١ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١ لتمرير خطابها، مع جهود أخرى موازية تتيحها مثل هذه الظروف النادرة والحرجة في تاريخ الغرب المعاصر، لضخ دم القيم الإنسانية الحقيقية في جسم العلاقات الدولية وعلاقات الحضارات فيما بينها.

٦- احترام الخصوصيات الحضارية. إن ما يفرق حضارة عن أخرى هي خصوصيات ومميزات كل منها، فتشكل الحضارات

(١) أبو زهرة، محمد. العلاقات الدولية في الإسلام، ص٢١، دون تاريخ ولا رقم، ولا بلد الطبع، دار الفكر العربي.

تنوعاً فسيفسائياً من الثقافات يغني الحضارة العالمية ويصنع بهجتها الدنيوية. هذه الخصوصيات يجب أن يستهدفها تعارف الحضارات بصورة إيجابية؛ فتحتل في جدول أعمال المتعارفين مكانة متميزة، يعرض كل فريق بدقة وعمق خصائص حضارته ومميزاتها وفلسفتها في الحياة ورؤيتها للقضايا الكبرى، سواء ما شغل منها الإنسان منذ القدم أو ما تبع تعقيدات الحضارة المعاصرة، كقضايا حقوق الإنسان، والحرية والديمقراطية وحماية البيئة، والسلم العالمي، وقضايا العلاقات الاجتماعية، الأسرة ومشكلاتها، واستغلال الأرض بما يعود على الإنسانية كلها بالمنفعة.. إلخ.

فتعمق مختلف الرؤى والتصورات، حول هذه القضايا وغيرها، التفاعلَ الثقافي والتقارب الإنساني، وتعطي علاجاً مفيداً مناسباً لها. ومن جهة أخرى تزداد مختلف الخصوصيات الحضارية وضوحاً لدى المتحاورين والمتعارفين، ويتبين الوزن الثقافي والحضاري لكل ثقافة وحضارة من زاوية إنسانية، مما يمكن لقيمة أساسية في تعارف الحضارات وهي احترام الثقافات المختلفة، والتعامل معها على أساس اعتبارها اجتهاداً إنسانياً لتطوير الإنسان، وتبقى مسألة الأخذ والترك منها محل اختيارات إنسانية - أيضاً - تقديرية تكيفها كل حضارة مع ما تراه متناسباً مع أوضاعها وقيمها ومرحلتها الحضارية، فتستنفر قواها الإبداعية في هذا الجو المتفاعل حضارياً لتطوير نفسها داخل نسقها الحضاري، وبعيداً عن مضار العزلة والتقوقع، فتخرج

الحضارة الإنسانية من الأحادية الحضارية وهيمنة (النموذج الأرقى) و(النمط المتطور الوحيد) للتحضر والتقدم، ويعرف العالم تجربة التعددية الحضارية التي تزدهر فيها قوى الإنسان وقدراته الإبداعية، وتتخاطب الحضارات والثقافات بلغة المنافسة الشريفة، يطوى معها منطق الصراع والصدام والغلبة المبيدة والتبعية الذليلة.

مؤيدات تعارف الحضارات

نعني بالمؤيدات تلك الاستعدادات الشعورية والفكرية والعملية التي يبديها القائمون على تعارف الحضارات، لإخراجه إلى دائرة الإمكان العملي في حياة شعوب الحضارات المتنوعة وأممها. وهي أيضاً عوامل موضوعية تدعونا نحن المسلمين للمبادرة والتشجيع، وتصدر الدعوة لتعارف الحضارات.

أولاً - المؤيدات الموضوعية

١- العامل الديمغرافي، فالمؤشرات الديموغرافية تذهب إلى تأكيد السيادة العددية للمسلمين في الأرض على مدى قرن؛ فالقرن الثاني والعشرين سيكون قرن الإسلام والمسلمين من هذه الناحية؛ إذ تشير تقديرات الأمم المتحدة إلى أن بداية القرن الثاني والعشرين سيسجل العدد الإجمالي للمسيحيين في العالم انخفاضاً، عما كان عليه في القرن الثاني والعشرين ليصبح ١،٩٨٠ مليار نسمة، (سيسجل مع نهاية القرن الثاني والعشرين ٢،٢٢٨ مليار نسمة)، أما عدد المسلمين في نهاية القرن ٢١ فسيصبح ٤،٤١٢ مليار نسمة، وسيستمر تزايدهم في

القرن ٢٢ ليصبح عددهم ٥،٨٥٣ مليار نسمة أي نسبة ٤٣،٣٪ من سكان العالم، أي أن نصف سكان العالم مع هذا القرن سيصبحون مسلمين، والصين ستصل في هذا القرن (القرن ٢٢) إلى ١،٩٧٥ مليار نسمة، وبقية العالم إلى ٣،٤٧ مليارات نسمة، بما يفيد أنه سيصبح على الكرة الأرضية بين كل فردين فرد مسلم على الأقل[1]. وربما عتمت الحالة المتردية للمسلمين اليوم على دلالة هذه الأرقام، فإن لم تبعث على التشاؤم المتزايد فلن ترى فيها سوى استمرار الحالة الغثائية للمسلمين، لكن دلالات كثيرة توحي بحدوث التغير في المستقبل، منها: قدرة الإسلام الذاتية على الانتشار ومد الإنسانية بالحلول الناجعة لمشكلاتها وأمراضها في الاجتماع والاقتصاد والنواحي الروحية والنفسية، في الوقت الذي لا تلبي فيه غيره من الديانات عدا بعض الحاجات الروحية.

كما أن الأرض الإسلامية ومنها العربية أراضٍ للثروة والمال، والقارة المستقبلية (إفريقيا) - خزان الثروة العالمية - تنفتح على الإسلام بشكل متزايد. كذلك يلاحظ التزايد الإسلامي في الغرب الذي يقدر وصول المسلمين فيه سنة ٢٠٢٠ إلى ٢٠٠ مليون نسمة، وهو عدد مؤثر لا محالة، خاصة أن الكثير منه نوعي. يضاف إلى هذا

(١) قلالة، سليم، (المسلمون بعد قرن: نصف سكان العالم)، مجلة العصر، ص٥، الجزائر، العدد ١، محرم ١٤٢٢هـ آذار (مارس)، نيسان (إبريل) ٢٠٠١م.

عدة عناصر ذات صلة بمعدل السن، فستزداد معدلات الشيخوخة في الشمال مما يضطره لمكافحتها واستقدام المهاجرين من الجنوب الذين سيغلب عليهم المسلمون، خاصة ذوي الكفاءات العالية. ومن هذه العناصر؛ التوزيع الجغرافي للمسلمين، فهذه المعطيات يمكنها أن تكون إيجابية في رسم صورة المستقبل الإسلامي العالمي، وهي موضع اهتمام كبير لدى الغربيين(١)، لسبب أساسي وجوهري، وهو أن العدد يمكن أن يتحول إلى نوعية في أي زمن من الأزمنة، أو تحوله النخبة إلى نوعية، في حين لا يستطيع مجتمع هرم أن يتحول إلى الفاعلية مهما فعل(٢).

على ضوء هذه التوقعات التي تؤيدها حقائق ماثلة للعيان، كتزايد الاهتمام بالإسلام؛ فقد أشارت بعض التقديرات إلى وجود آلاف

(١) نشير هنا إلى المغالطة المفضوحة لـ(صمويل هنتنغتون) صاحب النظرية المشهورة (صدام الحضارات) بشأن المسألة السكانية والديموغرافية باعتبارها - في نظره - سبب الحروب في المناطق التي يتعرض فيها المسلمون للمذابح، ففي مداخلته بمهرجان الجنادرية الحادي عشر (مهرجان الثقافة والتراث الذي تنظمه المملكة العربية السعودية) قال: «إن الصراعات والمذابح والحروب التي ترتكب ضد المسلمين في البوسنة وفي شمال القوقاز وفي فلسطين سببها الأزمة السكانية الاقتصادية، وارتفاع نسبة السكان بين المسلمين. وإن الصحوة الإسلامية سوف تهدأ وتعود عندما يهبط عدد السكان في القرن القادم. وإن التطور السكاني سوف يقل بين شباب المسلمين». انظر، الحرس الوطني، العدد السابق، ص٢١.

(٢) قلالة، سليم. المرجع السابق، ص٣٩.

المواقع في شبكة الإنترنت المهتمة بالإسلام والتطلع لمعرفته. كذلك تزايد الإقبال على اعتناقه خاصة بعد تفجيرات ١١ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١م، فقد ذكرت بعض التقارير الإعلامية أنه بعد حوالي شهرين من الحدث الأليم دخل حوالي ٢٤ ألفاً الإسلام في الولايات المتحدة الأمريكية وحدها، رغم تركيز الإعلام على الصور المرعبة للإسلام والأصولية والحملات العنصرية على المسلمين في الغرب. فلسنا نستبعد لجوء الدوائر المعادية خاصة الصهيونية تحت (رعب الإسلام) القادم الذي تنطلق به الأرقام والوقائع إلى استغلال هذا الحدث وأمثاله في صد الناس عن الإسلام.

كما نرى في هذه المؤشرات الرقمية مؤيداً كبيراً للمسلمين كي يعرضوا حقائق دينهم العظيم في موكب تعارف الحضارات، ويقودوا سفينته نحو النور.

٢- الموقع الاستراتيجي للإسلام اليوم، إذ يمثل الإسلام اليوم مركز العالم الحديث، مما يؤهله للقيام بربط الصلة بين الشمال والجنوب، والإسهام في بناء عالمية جديدة بديلة عن العولمة العقيمة، فيتمكن الإنسان من استرجاع محوريته ومن ثم حريته ومساواته وسعادته. هذا الدور يسمح بتجاوز الحوار أو الصراع الحضاري إلى بناء حضارة عالمية تتبلور فيها القيم الأساسية المميزة للحضارة الإسلامية، وما أكثر القيم التي تحتاجها الإنسانية والحضارة المادية من الإسلام؛ فقسوة المادة فجرت أشواق الروح في إنسان المدنية

المعاصرة التي لا يلبيها سوى الإسلام بتوازنيته العجيبة بين المادة والروح، فضلاً عن قيم العدالة الحقيقية، وأنظمته الاجتماعية والأسرية المتراحمة المتكافلة، ومد الاقتصاد بقيم ترحم الإنسانية من الجشع والابتزاز[١].

ثانياً- الاستعدادات الشعورية والفكرية

١- عقلنة الإيمان، من خصائص الرسالة الإسلامية موافقتها لصحيح المعقول؛ كما أن العصر هو عصر العقلانية المفرطة، فلا يسلم لك الإنسان المعاصر ما لم تبلغ بعقله حد الاقتناع؛ لهذا وجب - للانخراط في تعارف الحضارات - بذل الوسع لتحصيل عقلنة حقيقية راشدة، مصحوبة بإيمان ويقين عميق، نستطيع تحريكهما في ساحة التعدد الديني والفكري والثقافي[٢]، ولا شك أن العملية في حاجة إلى مضاعفة الجهود الفكرية والعلمية المضنية من جانبنا لضبط حدود العقل والعقلانية في ديننا، وحركته في ثنايا النص ودوره في تعرف الأحكام الشرعية وإثبات دلائل الإيمان وتثبيته في العقول والقلوب.

٢- حسن النية، فيجب على الأطراف المتحاورة والمتعارفة إظهار أكبر قدر من حسن نية التعارف والتعاون والتآلف، فعائق المواريث التاريخية المؤلمة يقف بحدة في وجه التعارف، تزيده صلابة الأحداث

(١) مقصود، كلوفيس. المرجع السابق، ص٥٨-٥٩.

(٢) الترابي، حسن. المرجع السابق، ص٣١.

والهجومات الفكرية والعقائدية، حتى العسكرية، خاصة من الغرب تجاه عالم الإسلام وحضارته، وتشجيع المبادرات الشيطانية في هذا المضمار. وإلى جانب ذلك ظهرت اتجاهات مشجعة هنا وهناك تبعث على الإقدام نحو مزيد من بلورة ملامح مستقبل تعارف الحضارات[١].

٣- عدم استغلال الدين في الصراع، فالمقرر في الإسلام أن الدين كما أنزله الله تعالى - ليس سبباً في الصراع والصدام والتنافي، وإنما استغلال الدين لأغراض مصلحية ضيقة، والهيمنة المستغلة البشعة، هو الذي يشجع على هذا الصدام والصراع. فنظرية صدام الحضارات مثلاً - تبرز الدين باعتباره عامل التوتر والصدام المستقبلي على حدود الحضارات الكبرى، وتُنَبِّه الغرب المسيطر لأن يبقى يقظاً لنزعات الإسلام التحررية والتنموية التي لا تنسجم مع (حداثة الغرب)، وتوجهه لتقوية المؤسسات الدولية التي تعكس وتسوغ المصالح الغربية والقيم الغربية وتضفي عليها الشرعية. وعلى المدى الأطول فسيكون اتخاذ إجراءات أخرى أمراً مطلوباً. وعلى الغرب احتواء الحضارات الأخرى. التي تختلف قيمها إلى حد كبير مع قيم الغرب[٢]، فنزعة السيطرة واضحة في هذا التنظير، لكن الخلفيات التي صيغت هذه النظرية لتعبر عنها وترسم غاياتها تؤكد مقولة أن الدين في طبيعته ليس

(١) الترابي. المرجع نفسه، ص٣٢.

(٢) هنتنغتون صمويل، صدام الحضارات، ترجمة: عبد الغني محفوظ، مجلة الحرس الوطني، المرجع نفسه، ص٩٠.

عامل تصادم وصراع، وإنما استغلاله وتوجيهه هو المؤدي لهذه الحالة المأساوية في تاريخ الإنسانية. ويتضح أكثر حين نقرأ خطاباً مغايراً في الحضارتين الإسلامية والمسيحية، وربما غيرهما يذهب عكس هذا الاتجاه، ويبدي الاستعداد الأصيل فيهما للتعارف والتقارب على غير الأسس التي تبنى عليها النظريات التصادمية.

معوقات تعارف الحضارات

ليس من اليسير حصر هذه المعوقات؛ فبعضها ممتد عبر التاريخ من خلال أدوار الاتصالات بين الحضارات، وبعضها بلغت بها تعقيدات العلاقات الدولية المعاصرة درجة الطلاسم التي يصعب فكها، ولعل أخطر المعوقات تلك التي يشكلها الإعلام ووسائل الاتصال الحديثة، إذ باتت تصنع الحرب والسلام، والخوف والرعب، والرغبة في الانتقام، والأنانية، والحب والكراهية، والتضحية، «وهكذا فالتطورات التكنولوجية الكبيرة التي ميزت القرن العشرين أفضت إلى ضرورة تصنيع المعلومات، باعتبارها القوة البديلة للقوى المهيمنة السابقة، سواء كانت عسكرية أو اقتصادية»[١]، وغني عن البيان أن هذه القوة البديلة يهيمن عليها أصحاب المصانع والامبراطوريات المالية والصناعية والتجارية الكبرى، وأصحاب عقيدة معاداة تآخي الإنسانية.

---

(١) حمدي، أحمد. (من تصنيع المعلومات إلى تصنيع الإجماع)، الشروق اليومي، الجزائر، العدد ٣٤٤، ٢٢/١٢/٢٠٠١م، ٠٧/٠٩/١٤٢٢هـ.

ومع هذا فما دام الذين ينخرطون في مسار تعارف الحضارات يفترض فيهم إيمانهم بجدية مسعاهم وجدواه على مستقبل الإنسانية، فلا بد من بحث المعوقات المقدر أن تعترض سبيل التعارف وكيفية تذليلها.

١- العائق العقائدي، فالدين يمثل جوهر كل حضارة، والالتفاف حول المعتقد في حالات الشحن والتعبئة العاطفية أو المقابلة الفكرية بين المعتقدات حقيقةٌ مشهودة، والملاحظ أن هذا الالتفاف هو عبارة عن ارتباط عاطفي في الغالب يولد الإحساس برغبة العزل من الثوابت والانتماء الطائفي والخصوصية الثقافية، فيتولد من ثمً الشعور العاطفي بالصراع، وهذا الشعور الحميمي بالمقدس يسبق الفكر في المقدسات، فيضيق مساحة العقل لمواجهة المسائل بموضوعية[1]، فيجب أن نسلم في التعارف والتحاور بأمرين:

الأول: أن الغاية من التعارف ليست نقل أهل دين إلى دين آخر، فلكل شرعة ومنهاج، فضلاً عن محاولات توحيد دينين أو الأديان.

الثاني: أن حرية الدعوة بالوسائل الشريفة الواضحة هي من حق الجميع[2].

---

(١) الترابي، حسن، المرجع السابق، ص٣٠-٣١.

(٢) نثبت في هذا الصدد الكلمة الثمينة التالية لباعث النهضة الإسلامية الحديثة في الجزائر الإمام عبد الحميد بن باديس (١٨٩٩ - ١٩٤٠م) رحمه الله تعالى: «نحن - كمسلمين- لا يضيق صدرنا بأن نرى أهل كل دين يحتفلون بطقوس=

وينبني على هاتين المسلمتين التطلع إلى بحث القواسم المشتركة بين الحضارات، كرفض الظلم وطلب الحرية والعدل، ومحاربة الرذائل والتفسخ الخلقي، والإبادة البشرية والظلم الاجتماعي، والاستغلال الجسدي والجنسي وثروات الشعوب، والاستبداد، وهي مما تلتقي القيم الحضارية السوية والعقول السليمة على نبذها وضرورة مقاومتها، ومن جهة أخرى تجد كل حضارة ما تسهم به في حلها على ضوء قيمها الحضارية، بل إن العقائد القائمة على عنصرية الجنس ستضطر تحت ضغط نقاء العقائد الأخرى من هذه الآفة، إما إلى تكييف عقائدها مع غيرها، أو تبريرها، أو الانكفاء عن ركب التعارف، فتتميز بخاصية انعدام الإنسانية وعداوة الجنس البشري، لا حضارة بعينها فقط.

٢- تضخيم الذات الحضارية، فعلى الرغم من التفاوت بين الحضارات من حيث القيم والإبداع والثراء العلمي والمعرفي والتكنولوجي وسعة الانتشار، فمما يعيق بقوة مسار التعارف، الادعاء بتفوق حضارة ما، حين تتضخم الذات الحضارية لدى أصحابها فيشعرون بالتفوق الباهر والعظمة المفرطة، فالحضارة في

= دينهم، ويظهرون تمسكهم بعقيدتهم، ويدعون إليه بكل شيء شريف نزيه، بل نود أن يقع التفاهم على نشر أصول الخير والإحسان التي تتفق عليها جميع الملل، وعلى مقاومة الشر والظلم والإلحاد المحرمة عند الجميع». انظر، آثار ابن باديس، المرجع السابق ٦/ ٣٢١.

مكوناتها المادية إنجاز بشري، وهي كذلك في الكثير من مكوناتها المعنوية، والفعل البشري عموماً يتفاوت قوة وضعفاً، نفعاً وضرراً، خيراً وشراً.

ولهذا فالأوفق التسليم بإيجابيات الحضارات كلها وسلبياتها - من هذه الزاوية- وصرف الجهود المستقبلية نحو إفادة الحضارات من إيجابيات بعضها بعض لفائدة إنسان المستقبل، والتفكير في نظرية مستقبلية (للتكامل الحضاري) يتخلق المنظرون لها بخلق التواضع بوصفه خلقاً إنسانياً سامياً وعلمياً مطلوباً.

٣- نظريات الصراع والصدام، صحيح أن الحضارات عرفت فترات كثيرة من الصراع والصدام، سواء المادي أو المعنوي، إلا أن ذلك لم يكن اختياراً حراً لأبناء شعوب الحضارات دائماً، بل في أحيان كثيرة يأتي تلبية لرغبة طغيان سياسي أو عسكري أو مالي أو فئوي، أو اضطراراً لمواجهة هذا الطغيان، أما المبادئ والقيم الحضارية فأكثرها ينحو منحى المسالمة والتعايش واحترام الإنسان في نفسه وماله وعرضه.

فنظريات الصراع أو الصدام بين الحضارات تروج لها جهات عديدة، خاصة الصهيونية في الغرب، التي يهمها أن تعطي الصراع صبغة دينية ليتواجه الإسلام مع المسيحية في الغرب[١]، فهنتنغتون بعد

---

(١) المصري، طاهر. (حلقة نقاشية)، المستقبل العربي، المرجع نفسه، ص١٦-١٧.

أن حدد بدقة وصرامة حدود الصدام بين الحضارات وأشكاله، وزين للغرب ضرورة (احتواء) الحضارات المخالفة لقيمه وقمعها، على اعتبار ذلك ضماناً لاستمرار تفوقه الحضاري - أي بعد أن سلمت النظرية بحتمية الصدام - ينهي مقاله بهذه العبارة المضللة «في المستقبل الوثيق الصلة بالقضية لن يكون ثمة حضارة عالمية، ولكن بدلاً من ذلك عالم من الحضارات المختلفة، وسيكون عليها أن تتعايش مع الحضارات معاً»[١].

فعلينا نحن المسلمين - أولاً - ألا ننساق وراء هذه النظريات، لاعتقادنا أن الصدام وإن وقع، فذلك بفعل عوامل مصلحية قد تستخدم الدين لا لذات الدين وقيمه.

وعلينا أن نعي أننا - ثانياً - أصحاب نظرة إسلامية تؤمن بالتعايش والتعاون، وأصحاب حضارة شهدت تجربة ناجحة في هذا الصدد.

وعلينا - ثالثاً - العمل - في سياق التعارف - على إنضاج أفكار حول نظرية في المسالمة والتعاون بين الحضارات تسندها مؤيدات: منها، أن فترات السلم بين الأمم والحضارات أطول من فترات الحرب، ونزوع البشر عموماً إلى المسالمة والموادعة، ودعوة الأديان إلى السلم والتآخي والقيم الإنسانية والإيجابية في الفكر العالمي.

(١) هنتنغتون، صمويل. المرجع السابق، ص٩٠.

٤- هيمنة المفهوم السياسي على مجال العلاقات الدولية، هذا المجال الذي تحكمه مبادئ المصلحة القومية، والتفاوض السياسي للفوز بأكبر قدر من التنازلات، والمناورة السياسية، وفرض شروط الأقوى، وأحادية النظرة في تحديد المفاهيم وتفسيرها. فلقد اصطبغت علاقات الحضارات فيما بينها بهذه المبادئ والمفاهيم السياسية، على حساب القيم العليا الإنسانية، التي كان من المفترض أن تصاغ مبادئ العلاقات الدولية على ضوئها لا على مقتضى المصالح الضيقة والعاجلة والجشعة، فيتعين على رواد التعارف الحضاري صياغة مفهوم جديد للعلاقات بين الشعوب والأمم باعتبار أن الحضارة - وبتعبير آخر (العلاقات بين الحضارات) - إلى جانب (العلاقات الدولية)، تتأسس على الأهداف والمبادئ المنوه بها سابقاً[١].

الخاتمة

نقدم بعض الاقتراحات التي تعبر عن تصورنا حول الانتقال بفكرة (تعارف الحضارات) من الإمكان إلى الفعل، آخذين بعين الاعتبار أننا جميعاً في حاجة إلى عمل دؤوب متواصل متطلع إلى المستقبل:

١- التربية والتعليم مطالبان - عالمياً - بأداء دور كبير ومستقبلي في إنشاء أجيال المستقبل متشبعة بروح التعارف والتسامح والتآلف بين

---

(١) نويري، إبراهيم، المرجع السابق.

الحضارات، ولهذا على النخب المتعارفة والمتحاورة النزول إلى ساحات التربية والتعليم - بمختلف مستوياتها وأنواعها - والاتصال بالمسؤولين عنها لتحسيس الجميع بهذا الطرح الحضاري، ومحاولة إقناعهم بضرورة إدراج برامج ومواد تعرف الأجيال بمختلف القيم الإيجابية والإنجازات المفيدة لدى الحضارات، بعيداً - طبعاً - عن أي بادرة استمالة ودعاية مغرضة لدين ما على حساب براءة الأطفال خاصة.

٢- تفعيل المؤسسات الثقافية العالمية والإقليمية للعب دورها في تنشيط التعارف بين الحضارات وتطويرها، وهذا من خلال برامجها الثقافية ومنشوراتها وهيئاتها.

٣- إنشاء منتدى فكري عالمي لتعارف الحضارات، مكون من النخب المؤمنة بالتعارف، والداعية والممارِسة لفعالياته، بعيداً عن تقلبات السياسة وأهوائها ومصالحها الضيقة، ينضم إليها - إلى جانب النخبة - المؤمنون بالمشروع من عامة الناس الذين يلتزمون بالتأييد العالمي له، كالإسهام في تمويل مؤتمرات المنتدى، وإحياء يوم عالمي (لتعارف الحضارات) بأنشطة إيجابية على المستوى العالمي.

٤- يعقد المنتدى الفكري الدولي لتعارف الحضارات ملتقى دولياً دورياً ينتقل من قارة إلى أخرى تعبيراً عن التنوع الحضاري.

٥- إنشاء موقع عبر شبكة الإنترنت يحمل عنواناً يعبر عن التعارف

الحضاري، بلغات العالم، يتواصل عبره أبناء الحضارات المختلفة حول القضايا الكبرى التي تشغل بال الإنسان المعاصر.

٦- إنشاء جوائز عالمية؛ علمية وفكرية وأدبية وفنية وإعلامية، لأحسن الأعمال التي تعبر عن التعارف.

٧- الاستفادة من التجارب السابقة في الميدان؛ كتجربة المعهد الدولي لحوار الحضارات الذي أنشأه رجاء غارودي صاحب الدعوة الشجاعة لحوار الحضارات.

تعارف الحضارات من أطروحات الاستشراق

إلى التمركز الإعلامي والدعاية المضادة

طاهر عبد مسلم[1]

في البدء لا بد من القول بأن قراءة مفهوم تعارف الحضارات هي قراءة من السعة والشمول ما تتطلب تنميطاً معرفياً لأسس المفاهيم والمنطلقات. ذلك أن هذه القراءة هي مفتاح قراءات كونية لوجود حضاري كامل ممتد لبضعة آلاف من السنين.

من هنا فإن ثمة تواصلية موضوعية بين راهنية الحضارات وبين مرجعياتها التقليدية. فالأنساق المعرفية التي تتحرك بموجبها الحضارة الغربية، والتي يعنينا في هذا المحور تدارس إشكالية التعارف معها، ليست مقترنة بحقبة العقيدة البوشية الراهنة، أو بعصر ما بعد ٩/١١ كما يشاع، لتمويه حقيقة الامتداد الحقبي للمفاهيم وتواصل الأهداف والمرجعيات.

من هنا فإن قراءة المشهد الحضاري تنطلق في هذه الورقة من

---

(١) باحث في الإعلام الدولي - الجامعة الوطنية ماليزيا.

المرجعيات الاستشراقية، فلكي (نتعارف) فعلى الأقل يجب أن نعرف «صورتنا في نظر الآخر» وكيف ينظر إلينا سابقاً ولاحقاً، وننظر كذلك إلى القاعدة المعرفية التي ننطلق منها في أي مشروع لتعارف الحضارات والتحاور معها.

هاتان المحصلتان (نظرة الآخر ومشروعنا للتعارف والحوار) تنعكسان بقوة عبر أداة العصر وعصبه الفاعل.. (الإعلام)، فلقد صاغت وسائل الإعلام وعي متلقيها، وأعادت تشكيل كثير من المفاهيم، وشنت حملات دعائية متصلة للوصول إلى أهدافها في ترسيخ صورة الآخر، وتكريسها.

وبصرف النظر عما شاع من قراءة أطروحتَي هنتنغتون وفوكوياما، فإن ما أثبتناه هو رسوخ النظرية التقليدية/ ما بعد الحداثية في نظرة الغرب وخططه باتجاه الحضارات الأخرى. ولكي نكون أكثر تحديداً في هذا انطلقت هذه القراءة من أطروحتين من أطروحات الاستشراق، وافترضت أن هذه المتون الاستشراقية تشكل مرجعية تقليدية راسخة، ما انفكت تتمظهر فيما نعيش فصوله اليوم من تحولات الإرادات والبرامج والخطط السياسية/ العسكرية الاقتصادية، التي يقدمها الإعلام عبر حملاته الدعائية وبرامجه التي لا يبدو أنها قريبة كثيراً من النزوع للتعارف أو للحوار المأمول، وتلك هي الإشكالية موضوع الجدل والنقاش.

سنبدأ كما قلنا في قراءة مشهد الحوار الحضاري وتعارف

الحضارات من أطروحتين (عشوائيتين) من أطروحات الاستشراق في سياق تتبع المرجعيات.

الأطروحة الأولى

تنشغل الرؤية الغربية للآخر بقراءة براغماتية في كثير من المواضع، ولذلك فإنها تتدرج في فهم الحضارة المقابلة على أنها أنساق مغايرة قائمة على الاختلاف والجدل ومن ثم تخطيء الآخر، وفي واقع الأمر فإن هنالك نزعة في الاستقراء تمزج البعد الجيوسياسي للحضارة بالبعد الثيولوجي المباشر.

ولعل أنساق الاستشراق كمتون في القراءة المقابلة تقدم محصلات كهذه. فالتراكم الاستشراقي مزج خططه وخلط محصلاته ووظف كل أدواته للوصول لهدفه المسبق وهو التعبير عن الشرق. فصورة الشرق ومهما كانت، وأيّاً كانت، تتحول بالتدريج إلى صورة مسبقة وقبْلية.

وإذا كانت هنالك الكثير من الطروحات قد أثبتها إدوارد سعيد في كتابه ذائع الصيت (الاستشراق)، فإن باحثاً ومستشرقاً لامعاً هو مكسيم رودنسون[1] يقدم خلاصة مباشرة خاتمة لكتابه المهم: (Europe And The Mystique Of Islam)، إذ يقول أن المستشرقين ما

---

(١) MAXIME RODINSON: EUROPE AND THE MYSTIQUE OF ISLAM: TRANSLATED BY: ROGER VEINUS. UNIVERSITY WASHING OF PRESS. NY. Ton 1991. P38.

انفكوا وهم أسرى نظرتهم الاستشراقية الضيقة، ذلك أن مفهوم الاستشراق بحد ذاته قد انطلق من ضرورات براغماتية فرضت نفسها على الباحثين الأوروبيين لقراءة الثقافات الأخرى.

ولقد فاقم الأمر أن هذه الحالة قد أعيد فرضها من خلال سيطرة الأوروبيين على العديد من البلدان الشرقية، والنتيجة ما كانت إلا نظرة (مشوشة) إلى الأشياء والتفاصيل. بالطبع لنا أن نمضي قدماً في قراءة رودنسون وتخريجاته الملفتة لمتون الاستشراق، لكن هذه الخلاصة الوافية المهمة ربما وفرت أرضية ما للعودة إلى جذور موضوعية ما انفكت تحكم حركية الفكر الأوروبي بصفة عامة من خلال منظومته الاستشراقية، فهي حركية مقترنة بسببية البقاء الثقافي كما يطرحها غرامشي عبر السيطرة أو الهيمنة (Hege Mony).

هذه الهيمنة هي في الواقع إنتاج وإعادة إنتاج مفاهيم مسنودة بقوة ما[١]. وقد وجدنا أن حقب الكولونيالية قد وفرت مثل هذا الإسناد، والذي سيتمظهر في بنى اجتماعية ومنظومات سياسية خاضعة للمنظور الاستشراقي وغير قادرة على تصحيح فكرة الهيمنة أو الاستحواذ على الفكرة، الفكرة المسبقة والبراغماتية التي ذكرها رودنسون.

---

(١) STUART HALL: POLITICS AND IDEOLOGY: GRAMCI. HUTCHINSON UNIVERSITY - LONDON 1978. P48.

وربما يتسع المدى إلى كم كبير من هذا النتاج - الاستشراقي - المهيمن، لكنني وجدت في كتاب إدوارد لين توكيداً موازياً لهذا المفهوم، فهو في رؤيته يخرج عن دائرة الهيمنة الجيوسياسية، لينحو منحىً سوسيولوجياً أدبياً في تمرير المفاهيم. إذ تتحول الفكرة الاجتماعية إلى إنتاج معانٍ وعلامات بحسب التوسير، هذا في الإطار العام، أما فيما يخص لين فإنه يقرأ المجتمع العربي من خلال منظومة خاصة هي منظومة ألف ليلة وليلة.. وبصرف النظر عما يتبادر إلى ذهن القارئ من محصلات محتملة لقراءة الليالي بحد ذاتها، فإن لين لا يعنى إلا بما سبقه من منظور، فهو أولاً وقبل كل شيء يورد مراراً وتكراراً مفهوم أو مصطلح (MOHAMMADAN) دلالة على (الإسلام) متحاشياً أن يقول: الدين الإسلامي. ذاكراً اسم النبي (ﷺ). ومن ثم فهو يقوم بفعل تجريدي مباشر، إذ من الواضح أن إقران الدين بالرسول فقط وليس بالخالق العظيم - جلت قدرته - من قبل لا يخلو من غرض ظاهر وباطن. ولذا صارت القراءة هي لإرث (محمدي) ومفهوم (محمدي) وشرع (محمدي) وهكذا.

ربما كانت هاتان الوقفتان تسلطان بقعة ضوء على ظاهرة سابقة، لكن المهم في الأمر أنهما تعبران عن وجهة نظر تتشكل وتشكل شتى المرجعيات التي تخاطبنا اليوم، والتي نهدف إلى إقامة حوار حضاري معها ومن ثَمَّ الاشتغال على مفهوم تعارف الحضارات.

الأطروحة الثانية

تشكل الحضارات القديمة قاعدة أساسية في تعارف البشرية، ونقصد تلك الحضارات التي شكلت حضوراً ملحوظاً في التاريخ البشري، والحضارة الإسلامية إذ ازدهرت بانتشار الإسلام فإنها وجدت نفسها في مواجهة تلك الحضارات القديمة: الأوروبية، الهندية، الصينية، الفارسية. من هذه الفرضية ننطلق في هذه الأطروحة، وهي في الواقع أطروحة الباحث والمستشرق المعروف برنارد لويس[١].. وأتوقف بشكل خاص عند فصل محدَّد من كتابه:

Cultures In Conflict: Christian, Muslim, And Jews In The Age Of Discovery

وقبل كل شيء وما دمنا نعيش أجواء جدل (صراع) أو (حوار) و(تعارف) الحضارات، فإن لويس في كتابه هذا يعلن (صراع) و(تقاطع) الحضارات عنواناً، والكتاب صادر في العام ١٩٩٥م. يشير لويس إلى أن المنظومة الحضارية المقابلة للحضارة الأوروبية محصورة ومحددة في ثلاث حضارات هي؛ الإسلامية، الهندية، والصينية. ويشير إلى امتدادها في قارات العالم القديم، وما يلبث أن ينتقل إلى جذور (تعارف) تلك الحضارات، قائلاً أن أوروبة لم تكن (تعرف) إلا القليل عن تلكما الحضارتين (الصينية والهندية) بالأخص في القرن

(١) BERNARD LEWIS: CULTURE IN CONFLICT. OXFORD UNIVERSITY. 3 PRESS - LONDON 1995.

الخامس عشر، الذي حمل الحدثين الكبيرين: اكتشاف أمريكا من جهة، والحروب الصليبية من جهة أخرى.

ويذهب لويس إلى أن قليلاً من أسس هذا التعارف ورثتها أوروبة من عهود الرومان والإغريق، وذلك بالأخص مما خلفه الرحالة والتجار من معلومات، والخلاصة أنه لا توجد معرفة متراكمة بين الحضارات الثلاثة: أوروبة من جهة والهند والصين من جهة أخرى[1].

أما وهو ينتقل إلى (تعارف) أوروبة والحضارة الإسلامية فيقول أنها حالة مختلفة جداً قائلاً: «إن الأوروبيين والمسلمين يعرفون كثيراً عن بعضهم البعض» ويضيف بأن الفارق المهم والأساس بين الإسلام والحضارتين الهندية والصينية هو أن الهند مكان والصين مكان أيضاً أما الإسلام فإنه: دِين.

ولعل هذا هو المدخل الأول في العلاقة مع الإسلام والحضارة الإسلامية؛ إذ تبدو فكرة القلق من الحقيقة واضحة.. لأن المنطق يقول أن الإسلام هو دين وأن انتشاره وبؤرة تمركزه هي الجزيرة العربية في فجر الرسالة الإسلامية، فهو دين على أرض، ثم تنقلت مراكز الخلافة إلى أراضٍ أخرى في نطاق الجزيرة العربية وبالأخص مركزيْ دمشق / الأمويين، وبغداد/ العباسيين.

---

(١) IBID. P 8.

وسرعان ما تتضح فلسفة لويس في تفسير هذه القصدية في القراءة قائلاً: «إن الإسلام يقوم على مبدأ كوني وهو معتقد ذاتي، والمسلمون يرون أنفسهم على أنهم حملة آخر رسالة من الله سبحانه وتعالى، وأن لهم خصوصية فَهْم الحقيقة الإلهية ونقلها إلى باقي البشر، وإذا كان ضرورياً فبالجهاد، أي الحرب، في سبيل الله. إنه اختلاف حاد عن الحضارات الأخرى في آسيا وإفريقيا وأمريكا»(١).

ويؤكد على الفارق بين المسيحية والإسلام من زاوية واحدة، قائلاً أن الأولى بقيت أوروبية، حتى وهي تخوض الحروب الصليبية فلتحرير أراضٍ مسيحية. أما الإسلام فهو مخالف تماماً لذلك كونه عالمياً، من جهة دعوته، وقبوله، وإدماجه الناس من مختلف الثقافات والأصول والأعراق والبلدان، فقد كان أوروبياً في إسبانيا وجنوب إيطاليا وبقاع من روسيا والبلقان، وكان آسيوياً وإفريقياً في آنٍ معاً. إنه عقيدة احتوت الأبيض والأسود، والأشقر والأصفر من البشر، ومن خلال الدعوة والتبشير ابتداءً من القرن السابع، امتدت الحضارة الإسلامية وكانت «تارة جارة للحضارة المسيحية، وأخرى منافسة، وأخرى عدوة»(٢)، وطيلة ألف عام - كما يذهب لويس - أي منذ انطلاق الدعوة الإسلامية وحتى هزيمة العثمانيين وانسحابهم من فيينا سنة ١٦٨٣م كانت الولايات المسيحية تحت تهديد الإسلام.

---

(١) IBID. P 10.

(٢) IBID. P 10

وكان الامتداد الإسلامي قد شمل الانتشار في - بقاع - كانت تدين بالمسيحية، وهي سوريا وفلسطين ومصر وشمال إفريقيا[١].

والظاهر - بحسب لويس - أن المسلمين وهم يحكمون الأصقاع التي نشروا فيها الإسلام، قد خلفوا (خوفاً) في تلك المجتمعات من النقاش والتعرف، وأنهم جلبوا معهم لفتح البلدان أقواماً شتى من التتار والأتراك والمراكشيين وغيرهم. هذه خلاصة مكثفة لقراءة ما للحضارة الإسلامية، والتعريف بها والتعرف على بناها وتصديرها إلى الآخر، إعادة إنتاجها فكرياً ودينياً واستشراقياً.

وبغض النظر عن شتى مقولات الإطلاق والتشويه، التي درج عليها حشد من الدارسين غير الموضوعيين والقصديين البراغماتيين، وبصرف النظر عن كثير من المآخذ على (طريقة) لويس في قراءة الحضارة الإسلامية، والتي لا تخلو من انتقائية وأهداف مسبقة وتخريجات خاصة به، إلا أن الأمر المهم أن كثيراً وقليلاً من مقولات لويس ما انفك يتردد بشتى الأوجه، محركاً مرجعيات إعلامية وثقافية غربية في تعريفهم بالثقافة العربية والتعبير عنها وطرح شكل من العلاقة بها.

تطرح منظومة لويس الفكرية قضية عنصر التهديد الذي يُمثله الإسلام والحضارة الإسلامية، وهي مرجعية خطيرة تأسست عليها

---

(١) IBID. P 11.

مواقف فكرية واجتماعية وسياسية، وهي ليست خاصة بلويس وحده بالتأكيد، بل تشمل طائفة واسعة من الذين يقلقهم هذا التهديد الذي ينبع من عنصرين هما: كون الإسلام أحدث الأديان وأقصرها عمراً حتى الآن، وأنه أكثرها انتشاراً بالمقارنة مع الأديان الأخرى السابقة له. وهذان العنصران ربما عمقا من ذلك القلق والتهديد الذي يحرك كثيراً أو قليلاً من المرجعيات الغربية كما قلنا، ويطلق ما صار يدعى بـ(الإسلام فوبيا).

التعارف والمرجعيات

تشكل المعايير التي تقوم عليها مسألة تعارف الحضارات ركناً مهماً من أركان المفهوم الإسلامي للعلاقات الدولية، فهذا التعارف هو شكل من أشكال هذه العلاقات التي تطورت بتطور الدولة الحديثة، ورسوخ قوانينها ودساتيرها وتبلور القانون الدولي والعلاقات الدولية، التي تتمظهر في شكل القوانين والمعاهدات الملزمة لجميع الدول. وفي واقع الأمر فإن أي (حوار) و(تعارف): (Debate + Introduce) يفترض أن يقوم على أرضية ثابتة ومناخ مهيأ، ولا تقوم المسألة في أجواء من التوتر والظلم والغطرسة والتجبّر والطغيان.. لهذا فإن ما يطرح في عالمنا المعاصر من أطراف تسعى لتكريس كرامة الإنسان وتكريمه الإلهي في مسألة الحوار والتعارف الحضاري، يتقاطع مع المعطيات الإجرائية التي تشوش على الأفكار والمفاهيم التكريمية للإنسان من جهة، ويشكل الحوار والتفاهم

الحضاري عائقاً أمام خططها القائمة على العنف وتأجيج نزعة الانتقام، وتسويّد منطق الحق للأقوى (وليس لصاحب الحق) كما تنادي به كل الشرائع السماوية والوضعية.

وفي واقع الأمر، إن (عولمة المفاهيم الدولية) التي جاءت بهذه المعطيات غير المتوازنة، والتي كان من محصلاتها الفجوة الحضارية والاقتصادية والاجتماعية، بين ما يعرف بقسمي الكوكب الأرضي (الشمال) و(الجنوب).

فقد بنت أنساق الاقتصاد المعولم، الممثل في اقتصاد السوق أو مايعرف بـ(المجتمع المفتوح) بحسب كرستوفر كوكر [١]، والشركات العابرة للقارات، والكولونيالية الجديدة، بنت قواعد مفاهيمها وخططها على هذا الواقع، ولهذا نقلت تعقيداتها الاقتصادية، ومشكلاتها الاجتماعية والسياسية، وإفرازاتها الداخلية كلها إلى الخارج، وباتجاه الجنوب تحديداً أو من حوله، ولقد تجلت هذه الحفريات العولمية في تأسيس القواعد القارة، عسكرية كانت أو اقتصادية، وقدمت المنظومة العولمية تجاربها المعاصرة خلال أكثر من عقد من السنين يمتد من العام ١٩٩٠م حتى اليوم، من خلال إشعال فتيل الصراعات الإقليمية وصراع الأقليات من جهة، وإعادة هيكلة

(١) CHRISTOPHIER COKER: GLOBISATION AND IN SECURITY. THE INTERNOTIONAL ISTIUTE. OXFORD 2002, P13.

الوضع الدولي والإقليمي بموجب هذه المعطيات من جهة أخرى.

وتجلى ذلك أولاً في حرب الخليج الثانية التي يسميها المهدي المنجرة بالحرب الكونية الثالثة، لأنها أول حرب تحتشد فيها الأمم تجاه دولة تحاربها وهي العراق، وتجلى ثانياً في حرب شبه الجزيرة البلقانية، ويتجلى ثالثاً فيما يعدّ من خطط باتجاه القضية الفلسطينية، والظاهر أن الحلقة الرابعة هي حلقة إعادة تأهيل الأمم فيما عرف بـ(عقيدة بوش الثاني)، والمستهدف فيها بالطبع أنظمة إسلامية عديدة، مطالبة بأجندات محددة في ميدان التعليم الديني والإعلام والثقافة والمرأة والديمقراطية، وما يعرف بـ(حقوق الإنسان) في المنظور الأمريكي.

هذه هي النظرة العامة للمشهد المعاصر، الذي نجد أنفسنا في مواجهته كإعلاميين وباحثين في الإعلام الدولي المعاصر. والخلاصة فيه: أن المرجعيات الفكرية والاستشراقية التي تحكم العلاقة بين الشرق والغرب، وهي المرجعيات المتوارثة، قد فاقمها ما عرف بأحداث أيلول (سبتمبر) في الولايات المتحدة.

القضية الأخرى أن هنالك أوضاعاً دولية تحكمها مصالح مستقبلية تحرك أنظمة العولمة باتجاه أهدافها، ولعل الإحصائيات المشيرة إلى تعداد السكان في الكرة الأرضية، في مقابل تناقص موارد المياه والطاقة بعد نصف قرن من الآن، تدفع وبقوة إلى التسابق لبسط النفوذ الكولونيالي الجديد، وبسط منطق الهيمنة والقوة. يضاف لهذا

عنصر مكمل وهو أننا عدنا مرة أخرى إلى نسقية (المركز) و(الأطراف) وإلى الإمبراطورية التي لا تغرب الشمس عن مستعمراتها، وتوابعها الغافية في ظلمات الاستعمار الجديد القديم.

المنظومة الإعلامية المعاصرة

وتعارف الحضارات، وراثة العولمة

ورثت المنظومة الإعلامية من منظار جمعي كل هذه الأجندات، التي نراها مطبقة على الميديا في الجنوب والميديا في الشمال على السواء. لكن الفارق؛ في من يصدّر ومن يستورد؟.

وقبل التواصل في هذا المحور.. لابد من التساؤل حول حقيقة التعارف الحضاري، وعلى أية ركيزة يقوم، وهي مسألة مهمة لا بد من التوقف عندها.. فما الذي تعرّفهُ أو تعرّف به للآخر؟ المؤكد أن هنالك فكرة ما يجب أن يدركها الآخر، وهذه الفكرة هي في الواقع مواثيق شرف وعقائد راسخة، وما دامت كذلك فهي أيديولوجيا تبشر بها الأطراف كلها. الغرب يبشر بأيديولوجيا ما بعد الحداثة والعولمة من خلال ما يأتي:

١- عولمة الاقتصاد وتحقيق نظرية الشراكة والاندماج وتحرر رأس المال.

٢- الأسواق العابرة للقارات ورفع الحواجز الجمركية والتشريعية عبر سياسة فتح الأبواب.

٣- التعاون في ترسيخ قواعد القوة في البؤر الساخنة من خلال تسهيلات تقدمها بلدان الجنوب.

٤- نزع أسلحة الجنوب في مقابل تدعيم قوة الحلف الأطلسي على جميع المستويات بما فيها الإقليمية، من خلال قاعدتي إسرائيل وتركيا كقاعدتين أمينتين، تضاف لهما قاعدة سنغافورة في جنوب شرق آسيا.

٥- عولمة الإعلام والثقافة وتسويق المفاهيم عبر مفهوم تعويد الشعوب على نمط حضاري تقدمه التلفزة والإنترنت وسائر الوسائل الاتصالية.

ولقد رصدت الولايات المتحدة لهذا المحور في ميزانية العام ٢٠٠٣م ما مجموعه (٦٦٠) ملياراً من الدولارات، أي ما يعادل ميزانيات ثلاثة أرباع بلدان العالم الإسلامي، بالإضافة إلى خطط أعلنتها الولايات المتحدة على أعلى المستويات في هذه الاتجاه نفسه.

أحسب أن الآخر يقدم هذه الأجندات في أي حوار.. وهي الأجندات التي ورثها وتسلمها الإعلام المعاصر، وصار من واجبه أن يترجمها في رسائل إعلامية وحملات إعلامية وحملات دعائية، وهو ما سنأتي إليه لاحقاً.

لكن المسألة تتطلب منا التوقف عندما يسميه المنظرون الغربيون بالقيم الأخلاقية التي تحكم هذا الإعلام وتعبر عن أهدافه، أو ما يعرف ب (Ethical Valves) وهي التي يتحدث عنها (Joseph Dominik) في كتابه (The Dynamic Of Mass Communication) قائلاً أنها ترتكز أولاً وقبل

كل شيء على القيم المسيحية / اليهودية، وذلك بمثابة ميثاق وطني لعموم الإعلام الغربي والأمريكي بشكل خاص.. وبذا سنختلف كثيراً مع من يحيل الرسائل الإعلامية والتدفق الإعلامي إلى تجريدية علمانية مفرغة من مرجعيتها الدينية بشكل مطلق.

في واقع الأمر إن هذا الظن هو محض مسلمات تقليدية عرّفت الإعلام الغربي طويلاً ويسرت تغلغلَه في مجتمعات الجنوب والتسامحَ شبه التام مع طروحاته. بينما كان هنالك رد فعل مضاد للإعلام الشيوعي الإلحادي الكافر، لأنه سافر في المرجعية الأيديولوجية والتعبير عنها.

والذي يؤكد حقيقة تواصل الحلقات الاستشراقية في النظر إلى الحضارة الإسلامية، وإلى الإسلام والبلدان الإسلامية، هي صورة هذه البلدان وصورة المسلم في بروبا غاندا معمرة ومزمنة، هي بروبا غاندا السينما الهوليوودية، فهي التي عبرت عن حقيقة تلك الأيديولوجيا الغربية ومرجعياتها، وهو ما كشفه الأستاذ جاك شاهين في كتابه المهم الصادر بالانجليزية بعنوان (العرب الأشرار في السينما : كيف تشوّه هوليوود شعباً).

خلاصات في تعارف الحضارات: اتخاذ القرار

تنطلق هذه الخلاصات من الركن العقيدي والرسالي للرسالة الإسلامية السمحة، وتنعكس في أنساق الخطاب الذي يوظفه الإعلام، وتقدمه السياسة في منطقة اتخاذ القرار والتعبير عن رأي

الأمة، وتمثل تلك الخلاصات عبر الخطاب الإعلامي الهادف إلى التعارف والتعريف. وتعد منطقة اتخاذ القرار DECISION MAKING بمنزلة محور لاشتغال الساسة والاقتصاديين والاجتماعيين والإعلاميين في العصر الحديث. فهي المنطقة المفصلية في أي نظام أو بناء أو حكم في العالم المعاصر. وهي في الواقع عصب الحياة الذي يُحرك الإعلام ويُحدد له ما ينطق وما لا ينطق.. أي عندما يسلط الأضواء على ظاهرة، وعندما يُعَتم على أخرى مقابلة.

فيما يخص طموحنا المشروع في استبدال فرضية صراع الحضارات التي تستعر في أوساط اليمين المتطرف وأوساط مراكز الاستكبار العالمي، بمفهوم تعارف الحضارات وحوارها، سننطلق من معطيات نجدها أكثر موضوعية في أية قراءة للأزمات الراهنة، التي تعصف بالكوكب الأرضي، وتقودهُ إلى هاوية سحيقة، ويمكن من وجهة النظر الإعلامية قراءة الفلسفة العربية الإسلامية، من جهة اتخاذ القرار والتعبير عنه إعلامياً، من خلال المقتربات الآتية [١]:

---

(١) ينظر في هذا الصدد: د. وهبة الزحيلي: العلاقات الدولية في الإسلام، ص١٠، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٩٧م. وأيضاً: الشيخ محمد أبو زهرة، العلاقات الدولية في الإسلام، ص١٩ وما بعدها، دار الفكر العربي. القاهرة (د.ت). وأيضاً: طاهر عبد مسلم، صورة الإسلام في الإعلام الغربي. بحث إلى ندوة كلية الدراسات الإسلامية والحضارة - الجامعة الوطنية - ماليزيا، كانون الأول (ديسمبر) ٢٠٠٢م.

١- الكرامة الإنسانية: فالإنسان هو خليفة في هذه الأرض، والله سبحانه وتعالى سخر له ما في الكون وجعله تحت سلطانه.

٢- الناس أمة واحدة: فالإسلام يعتبر الناس جميعاً أمة واحدة تجمعها الإنسانية، كما نصت على ذلك الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ٤/ ١].

وأما الاختلاف في حالة الأمة الواحدة فهو عارض، ومنشؤه اختلاف الأهواء كما دلت على ذلك الآية الكريمة: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الروم: ٣٠/ ٢٢]، وإن الاختلاف في اللغات والألوان مقرون بإرسال الرسل بالهداية، ليحكموا بأمر الله تعالى في شأن هذا الاختلاف. ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢/ ٢١٣].

٣- مبدأ التعاون الإنساني، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٥/ ٢].

٤- التسامح: ومع ذلك بناء العلاقات الإنسانية السليمة بين الأفراد والدول والجماعات، والدفع بالتي هي أحسن.

٥- الحرية: سواء كانت فردية أم جماعية، وذلك بالتفكير الحر

ومنع الإكراه لحمل العقيدة، ورفض الترهيب والترويع والتهديد، بالاستناد للفطرة السليمة المتحررة من الأهواء والشهوات، والمستندة للعقل والإيمان الصحيح.

٦- العدل: وكثيرة هي الآيات الكريمة التي تحث على العدل وتنهى عن الظلم، وتؤكد أن العدل هو حق للأعداء كما هو للأولياء.

٧- المعاملة بالمثل: وهو عنصر من مفهوم العدل، وعلى أساس أن العدل لا يتنافى مع الرحمة بل يتلازم معها.

٨- الوفاء بالعهود والمواثيق على مستوى الأفراد والجماعات والدول.

ربما كانت هذه المقتربات هي خلاصات أساسية في التعامل مع الآخر، وتشكل تعبيراً عن الأيديولوجيا التي يتحرك عليها وبموجبها الإعلام الإسلامي كفرضية حوار وتعارف وتعريف. وبموازاة ذلك يعرض بعض الباحثين لمفهوم المقاصد الكلية التي تشكل هدفاً من أهداف هذا التعارف وحوار الحضارات وتشتمل هذه المقاصد على ما يأتي[1]:

١- المقاصد الكلية الحافظة التي تجعل من الحوار والتعارف أداة

(١) د. نادية مصطفى وزميلها: أمتي في العالم، ص١٥، مركز الحضارة للدراسات السياسية، القاهرة، ٢٠٠٠م.

للوصول للتفاهم والسلم، ومن ثمَّ حفظ الدين والعقيدة والنفس والنسل، أو ما يصطلح عليه حديثاً بـ (عناصر التنمية البشرية).

٢- حفظ الكيان الفكري للفرد والأمة - العقل ونتاجه.

٣- حفظ المال من خلال استمرارية حركة التنمية والعمران، والاستثمار وإيجاد فرص العمل.

التأصيل المنهجي لمفهوم الأمة في مسألة تعارف الحضارات

وسط إشكالية التعارف تطرح بقوة جدلية: مَنْ يحاور مَنْ؟

وفي البدء لا بد للأمة لكي تعرّف بموضوعية بكيانها وخططها الإنسانية ومنجزها وموقعها وحقوقها، أن تنطلق من قاعدة واحدة وتتحدث بصوت واحد. والقصد هو وحدة الفكر والدفاع عنه، وخذ من قصص البلبلة في التعبير السياسي والإعلامي الكثير، إذ صارت ظاهرة ملفتة أن بعض مفاصل القرار العربي والإسلامي تتحدث بلغتين، لغة تتفهم خطط الغرب وتسندها.. ولغة الشعور بالقلق إزاءها، أو حتى عدم المشاركة فيها، وهما صورتان متناقضتان لأصحاب القرار، عندما يكونون في ضيافة الغربيين في الأولى، وعندما يحطون في مطارات بلدانهم عائدين في الثانية.

من هنا فإن الحوار والتعارف يفترض أن ينطلق من أعظم ما نمتلكه وهو الأمة.. تذهب الدكتورة منى أبو الفضل إلى أن «الأمة هي أهم الكيانات الجماعية التي عرفتها المنطقة الحضارية، وأن مهمة

الباحث هي تحويل الأمة موضوعاً عن ظاهرة إلى موضوع، والارتقاء بالأمة من مستوى الوجدانية إلى مستوى المدركات العقلية، وترشيد شعورنا، وتحويل الانفعالات اللاشعورية إلى تفاعلات واعية إرادية»[١].

وأما في المنظور المعاصر لعلم السياسة، فالأمة تعبر عن خلاصة حضارية - ثقافية قائمة على تنوع في الجوانب الفكرية والمادية. ومن هنا يمكن النظر للأمة الإسلامية كنظام فرعي دولي نوعي يتكون من دول أو من شعوب ويقع في النظام الدولي الشامل، ويمكن قراءة هذا النظام بمستويين:

١- تحليل النظم SYSTEM ANALYSIS

٢- المقترب النظمي SYSTEM APPROACH

الأول ينطلق من دراسة مكونات الكل ليتوصل إلى مفهوم هذا الكل، والثاني يرى أن الكل هو أكثر من مجموع الأجزاء والمكونات، حيث يصبح الكل - أي النظام - هو مصدر تفسير سلوك المكونات. وبحسب الدكتور علي المزروعي فإن الإشكالية المقترنة بدور الأمة تكمن في أن العالم الإسلامي مر بتاريخ طويل من النهضة والحضارة، وقد جاءت عصور الظلام في الغرب قبل عصر النهضة، بينما جاءت

---

(١) د. منى أبو الفضل: المصدر السابق نفسه. ص ٢٠.

عصور الظلام عندنا نحن المسلمين بعد عصر النهضة، ومن هنا أصبح المسلمون موضوعاً للتاريخ وليسوا ذواتاً فاعلة فيه[1].

وبحسب وجهة نظر المزروعي فإن التحدي أو المشكلة هي أنه ليس فقط الغرب هو الذي ينظر لنفسه باعتباره كحضارة وثقافة نهاية للتاريخ، وليس فقط الذي ينظر للعامل الإسلامي باعتباره مفعولاً به موضوعاً للتاريخ، وإنما التحدي والمشكلة الحقيقية هي في رؤية الأمة والمسلمين لأنفسهم في مواجهة الغرب، إذ أن المسلمين أنفسهم يرون أنهم موضوعات للتاريخ لا صناعاً له [2].

المعطيات ما بعد أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١ وراهنية الحضارات

للوصول إلى محصلات مثمرة لجدلية الحوار/ اللاحوار، والتعارف/ اللاتعارف، ستبحث أية مجموعات متجهة للتحاور أو التعارف عن فضاء موضوعي يوفر قاعدة للوصول إلى الهدف. وليس بجديد القول أن مناخ ما بعد أيلول (سبتمبر) في الغرب هو مناخ تطغى عليه العدوانية ونزعة الانتقام، وفي واقع الأمر فإن التحسب من القوى القادمة في نظر الغرب لم يقترن بطروحات فوكوياما أو هنتنغتون، بل كانت الحقبة (الريغانية - التاتشرية) هي الفيصل في

(١) د. علي المزروعي: أفريقيا والإسلام والغرب. ص٤٠، ترجمة: د. صبحي قنصوة وآخرون. مركز دراسات المستقبل الإفريقي، ١٩٩٨م.

(٢) المصدر السابق نفسه. ص٤٢.

رسم معالم العلاقة مع الآخر، كما تؤكد ذلك العديد من الدراسات الغربية. وقد عمق هذه الضرورة سقوط نظام الشاه في إيران، وإعلان الحكومة الإسلامية، ثم ما عرف لاحقاً بظهور (التيارات الأصولية الراديكالية)، وما عرف أيضاً بالإسلام السياسي، في العديد من البلدان الإسلامية.

من هنا سنتوقف قليلاً عند ما أسميناه بالفضاء الموضوعي للتعارف والحوار.. ولعل جانباً مهماً من تأسيس هذا الفضاء تتولاه أجهزة الإعلام في تهيئة الرأي العام باتجاه هدف كهذا. ملامح هذا الفضاء على صعيد الولايات المتحدة، يمكن تلمس بعض مؤشراته من خلال النقاط الآتية كنماذج ومؤشرات ومعطيات:

١- تحرص قناة (فوكس) واسعة الانتشار على التعرض بصفة مستمرة للإسلام والمسلمين والإساءة المتعمدة لهم، ويتجلى ذلك في برنامج رجل الإعلام الديني القس بات روبرتسون المعني بدعاية منظمة وممنهجة.

٢- تكرس وسائل الإعلام أهمية خاصة لطروحات القس المتطرف فرانكلين غراهام، الذي طالما اتهم الإسلام بأشنع الاتهامات المنطوية على التحريض والكراهية.

٣- يشكل الإعلامي بيل أوراني وحده منبراً دعائياً معادياً ضد أي حوار مع الإسلام.

٤- يشكل ثنائي القسيسين المتطرفين جيري فالويل وبيل غراهام واللذين يتبعهما ملايين الأتباع، يشكل هذا الثنائي بقعة قاتمة للشر والكراهية، فهما لا يكتفيان بالإساءة للإسلام، بل لا يتورعان - وهما الآثمان - عن شتم سيدنا رسول الله ﷺوالإساءة إليه. ومؤشر بسيط على فظاعة ما يقترفه فالويل ما قاله جاك سترو وزير الخارجية البريطاني بأن تصريحات فالويل تمثل إهانة للمسلمين والمسيحيين على حد سواء[١].

٥- إن هنالك حملات منظمة لتتبع حياة العرب والمسلمين، وتكريس الصورة النمطية التي خرجت من دائرة الاتهام بالتخلف وما إلى ذلك، إلى دائرة الإرهاب والعدوانية والشر مما هو معروف، وتكرسه بالإضافة لقناة فوكس، قنوات NBCوCNN وصحف (وول ستريت جورنال) و(ويكلي ستاندرد) وغيرها، ويبرز الكتاب المتعصبون ومن بينهم وليام كرستول وتشارلز كراوثهامر.

٦- في المقابل تعلن الولايات المتحدة عن حملة إعلامية/ دعائية لتحسين الصورة، وتطويق الإحالات التي ما انفك الإعلام الأمريكي يرددها: (لماذا يكرهوننا؟)، وذلك ضمن برنامج عمل باتجاه مجموعة من الدول الإسلامية، تحت إشراف وزارة الخارجية

---

(١) ينظر في هذا الصدد: بيانات (كير): مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية وبالأخص بيانه في ٢٤/٨/٢٠٠٢.

الأمريكية، وتحت قيادة شارلوت بيرز المسؤولة عن الدعاية في الإدارة الأمريكية، وهو ما أعلن عنه من خلال مؤسسة هريتيج الأمريكية.

٧- فيما يخص الإدارة الأمريكية في ظل رئيسها بوش الثاني، تذكر التقارير ما يلي:

«توصل أحد الباحثين الأمريكيين مؤخراً بعد دراسته لكل أحاديث بوش الثاني وخطاباته، أنه أصولي مسيحي يؤمن من بين أمور أخرى بأن الضفة والقطاع في فلسطين هي منحة ربانية لليهود، ولا يجوز التنازل عنها، وهو نفس الاعتقاد الذي يؤمن به المسيحيون المتطرفون بقيادة بات روبرتسون، بالقول بأن على الإدراتين الأمريكية والإسرائيلية عدم التنازل عن الضفة والقطاع لأن ذلك مناقض لإرادة الرب. هذا بالطبع مضاف إلى تصريحين لبوش الثاني سابقين بأن الحرب على الإرهاب هي حرب صليبية»[١].

٨- تقول أ. هالسل أن الأصوليين المسيحيين مستعدون لنقد أي بلد في العالم، أما نقد إسرائيل فهو يساوي نقد الرب ذاته[٢].

والمحصلة هي أن قيمة الدعم الأمريكي لإسرائيل منذ العام ١٩٩٣ بلغت (١٦٠٠) مليار دولار، لو وزعت على سكان الأرض لحصل كل منهم على ٦ آلاف دولار.

---

(١) محمد الشنقيطي: المسيحية الصهيونية والسياسة الأمريكية، موقع الجزيرة على الشبكة، ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٠٢م.

(٢) در السابق.

من هنا نكوّن مؤشرات حول الراهنية الحضارية، والمناخ الذي يغلف الحوار أو التعارف، وهل ثم تصميم مسبق للوصول بالهدف الاستشراقي الممتد لعدة قرون من العلاقة بين الغرب والإسلام إلى منتهاه؟.

الأكيد أن مفهوماً مخالفاً للوقائع الحضارية وقراءة الحضارات يتشكل وتدعمه المتغيرات السياسية. فإذا كان التاريخ الحضاري قد فُسر لدى هيغل بأنه مزج المتناقضات والصراع الدائم وربط التاريخ بنظرية المعرفة، فإن توينبي كثيراً ما ربط جذر الحضارات بالأديان.

ولهذا تجد أن مرجعية الخطاب الإعلامي - الأمريكي بالأخص - اليوم هي مرجعية دينية بالأساس، يؤكد ذلك بالإضافة لما ذهبنا، عشرات البحوث والدراسات التي ظهرت خلال العامين الأخيرين بالأخص، وكان آخرها كتاب شغل الناس بعنوان (السيف) لمؤلفه سيرجي تريفكوفتش، ونشرت فصوله في مجلة (NATIONAL REVEW)، خلاصة ما يذهب إليه المؤلف «أننا نخوض نضالاً آخر على مستوى الكون مثل نضالنا مع الشيوعية والنازية، إلا أن العدو هذه المرة أيديولوجيته الممتزجة بالدين، أيديولوجية لا تتعايش مع غيرها من العقائد، إنها عقيدة تمجد العقل الجماعي سبيلاً إلى هدفهم الذي ليس هو أقل من غزو العالم»[1] وبالطبع هو مكرس ضد الإسلام.

---

(١) موقع NATIONAL REVEW وينظر: مها عبد الفتاح، من يحاسب الصحافة الأمريكية، أخبار اليوم - مصر ٢١/١٢/٢٠٠٢م.

خاتمة واستقراء أخير

لا شك أن ثمة قيماً حضارية آمنت بها الحضارات ورسختها بالتقادم. والذي جاءت به الحضارة الإسلامية من منظومات قيمية وأنساق لتفاعل البشر فيما بينهم، يشكل حصيلة وإنجازاً متقدماً. ولذا فمن حق الأمة ومن واجب النخبة فيها، أن تنطلق من كل هذا للإفصاح عن التجدد الفكري والإنساني، الذي تنطوي عليه هذه العقيدة المنفتحة على كل الأزمنة وكل البشر. فالإسلام إذ قدم مشروعاً إنسانياً متكاملاً ربانياً، فإنه خرج عن طوق الدوغمائية والصنمية والجمود الفكري، وكان ولا يزال يمتلك قوة المواكبة، فهو مكلف بالإجابة عن الأسئلة الكونية الكبرى، ويدعو إلى ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن.

ولا شك أن معطيات واقعية كثيرة، ترافقت مع السياسات وبعض الظواهر الاجتماعية، قد ألحقت بالإسلام أضراراً فادحة، ووفرت للكثيرين فرصة كي يحملوا على العقيدة ويحاربوا معتنقيها على كل صعيد. يضاف لهذا الجهل والأمية التي تشكل أفدح المخاطر النائمة في جسد الأمة، والتي وفرت للمتن الاستشراقي المعاصر الفرصة، كي يسلط الأضواء الكاشفة على الظواهر الفولكلورية والعادات والتقاليد السمجة على أنها هي الحضارة الإسلامية بقضها وقضيضها.. فضلاً عن أن هذه الأجواء كانت مرتعاً للخمول الفكري، والقطيعة مع العصر والحضارة والتكنولوجيا المعاصرة وأسرارها.

ولقد وجدت النخبة المستنيرة نفسها أمام هذه التركة، فيما تذبذب الخطاب الإعلامي بين الانشغال بقضاياه القطرية المحلية السلطوية، والتبعية المتوارثة للخطاب الغربي. وتراكمت في ظل هذا الاختراقات.

في ظل هذا تبرز قصة تعارف الحضارات كمنظور استراتيجي للصعود بالخطاب العربي الإسلامي وتقديمه في إطاره الحداثي المعاصر. السؤال هو كيف؟ لأن الأماني الكبيرة كثيرة. الكيفية لا تتحقق إلا بمزيد من استقراء (من نحن وماذا نريد)؟ وأن تتحول النخبة إلى موقع صوغ صورة الغد، وألا تهمش هذه النخبة وخطابها، وتتحول الثقافة ومنطقها الحضاري إلى كهنوتية مستلبة تتحدث في أي شيء سوى قراءة مستقبل الأمة ومستقبل صلتها مع الحضارات.. وبذلك تتخلى عن دورها كمجس سباق في قراءة الغد.

والتعارف الحضاري يعود أيضاً إلى إعادة النظر بهذا الخطاب الإعلامي الذي أثبت عجزه وفشل خططه، لأنه يذهب أشتاتاً في الاختلاف والتناقض والدوغمائية وخدمة الحكومات وتكريس سلطويتها.. وأختتم بمقولة لمراد هوفمان إذ يقول: (إذا كنا نريد أن يكون لنا اعتبار كمسلمين فيجب أن نتكلم بصوت واحد..) فهل ذلك ممكن.. راهناً ومستقبلاً؟.

شغف الرحالة العرب بالتعرف على أوروبة

التعارف سبيلاً لحوار الحضارات(*)

شمس الدين الكيلاني(**)

لقد حث الإسلام على الرحلة والتجوال، بقصد التأمل في مخلوقات الله التي تدل على عظمة الخالق، وللاتعاظ من آثار الأمم البائدة، والتعرف على الحضارات القائمة للاعتبار(1)، فكانوا يتلون آيات القرآن التي تحمل تلك الدلالات: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [غافر: ٤٠/٨٢]، و﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٢٢/٤٦] و﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام: ٦/١١].

(*) نشر هذا البحث في مجلة الاجتهاد، بيروت، العددان ٥٢-٥٣، السنة الثالثة عشرة، خريف وشتاء ٢٠٠١ - ٢٠٠٢م، ص٣٤٣ -٣٦٠.

(**) كاتب وباحث من سوريا

(1) حسين نصار. أدب الرحلة، ص٤، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة ١٩٩١م.

وروى أبو هريرة عن النبي (ﷺ) قوله: «اللهم أنت الصاحب في السفر..»، ونسب بعض المحدثين إلى النبي القول: «اطلبوا العلم ولو في الصين». فضلاً عن ذلك، فقد خفف الإسلام عن المسافر، تسهيلاً للسفر، بعض الواجبات الدينية في الصوم والصلاة (فليس على المسافر حرج)، ولعل إباحته لتعدد الزوجات يتضمن التخفيف من عبء السفر(١).

ويذكر الإمام الغزالي، أن السفر سفران: «سفر بظاهر البدن عن المستقر والوطن إلى الصحارى والفلوات، وسفر بسير القلب من أسفل السافلين إلى ملكوت السموات، وأشرف السفرين السفر الباطن، فإن الواقف على الحال التي نشأ عليها عقب الولادة، الجامد على ما تلقفه بالتقليد من الآباء والأجداد، لازم درجة القصور، وقانع بمرتبة النقص، ومستبدل بمتسع فضاءٍ: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣٣] ظلمة السجن وضيق الحبس»(٢).

لكن العامل الحاسم في ازدهار الرحلات، وبعث النشاط فيها إلى أوروبة وغيرها من البلدان، هو تحول المسلمين إلى دولة كونية كبرى، فرضت التعرف على الذات، والآخر المحيط بهم، وعلى العالم، فقد اندفع العرب - المسلمون ينشرون الإسلام إلى إسبانيا غرباً، وإلى

(١) المصدر نفسه، ص٤، راجع أيضاً حميدة، عبد الرحمن: أعلام الجغرافيين العرب، ص٤٢، دار الفكر، دمشق - ١٩٨٤م.

(٢) الإمام الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. إحياء علوم الدين، ص٢٦٧، المجلد الثاني، دار الفكر، بيروت - ١٩٩٤م.

الصين والهند شرقاً، فأخضعوا بلاد الشام ومصر التابعين للروم، وبلاد العجم والعراق التابعين للدولة الساسانية، وكسبوا معركة ذات الصواري البحرية ضد بيزنطة عام ٦٥٤م، وفتحوا السند بقيادة محمد القاسم عام ٧١٣م، ووصلوا إلى تركستان الصينية عام ٧١٥م، وحاصروا القسطنطينية ذاتها في غزاة حضرها الصحابي أبو أيوب الأنصاري عام ٧١٧م. وقد حدث هذا التوسع كله خلال قرن من الزمان، تعرف العرب خلاله على بلاد ذات حضارات متنوعة، أفادوا منها ودمجوها في ثقافتهم العربية - الإسلامية، فما أقبل القرن الثالث الهجري حتى صار العرب - المسلمون إمبراطورية فسيحة الأرجاء لها امتدادات عالمية، تمازجت فيها الشعوب في بوتقة الإسلام كدين، والعربية كلغة، حيث تبنت المدينة العربية - الإسلامية، ومعها نخبها الإدارية والثقافية والعسكرية، العربيةَ لغةً للثقافة. وتجلت في داخل هذه الإمبراطورية أخوة روحية إسلامية، وازدادت معها معرفة حدود البلدان، وعادات الشعوب وتقاليدها، وساعد على هذا التقصي المعرفي الترحل في الأرجاء الشاسعة لدار الإسلام التي كانت مفتوحة أمام المسافر دون حرج ولا عائق، وسهلت الدول المركزية نفسها عملية الترحال والانتقال باعتنائها بنظام البريد، وبتمهيدها للطرق، وبتشييدها المحطات أمام المسافرين والرحالة والحجاج[١].

---

(١) نصار، المصدر السابق، ص٥.

فبعد حقبة الفتوح السريعة والحاسمة، امتدت مملكة الإسلام من جبال البيرنيه حتى تخوم الصين، وضمت في جنباتها بلاد العرب الحالية وفارس وأفغانستان وأرمينية وإسبانية، بما في ذلك البرتغال، سرعان ما انضافت إلى تلك الأقطار جزر البحر الأبيض المتوسط: كالبليار وصقلية ومالطة وقريطش وقبرص، ثم ما لبث العرب، في مناخهم العالمي الجديد، أن تحولوا من فاتحين إلى رحالة كبار وملاحين مهرة وتجار تمكنوا من التعرف على سائر الأقطار الواقعة على ضفاف المتوسط والبحر الأحمر وقزوين والبحر الأسود، فضلاً عن المحيط الهندي وجزء من سواحل الأطلسي في أوروبة وإفريقيا، ثم ما لبث مؤرخو الفتوحات والرحالة والجغرافيون والتجار أن قاموا بوصف تلك الأصقاع المترامية الأطراف، ودونوا مشاهداتهم عن سكانها ونباتها وحيوانها(١).

أقامت الخلافة العربية كياناً اقتصادياً وثقافياً وسياسياً موحداً شمل الرقعة الهلنستية القديمة والقسم الجنوبي من الإمبراطورية الرومانية، وامتدت إلى تخوم أفريقيا السوداء، ومن نهر الهندوس إلى الأطلسي، وكانت في أساسها حضارة مدن انتعشت في إطارها صلاتها الاقتصادية بالعالم، فلم تتوقف علاقاتها الاقتصادية مع أوروبة رغم احتدام الصراع أحياناً، والشعور بالتهديد وخطر الاجتياح. وكثر

(١) بشير صفير. الجغرافيون العرب، ص١٦، تقديم وتعريب: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٤م.

تنقل الحجاج والتجار وأهل العلم والرحالة[١]، مع ازدياد الرغبة في اكتشاف الآخر وتكوين صورة له، سواء كان هذا الآخر الداخلي في إطار دار الإسلام، أم الخارجي بما فيه الآخر الأوروبي، ولا سيما بعد أن أصبحت بغداد - حاضرة الخلافة العباسية - أهم مراكز الحضارة العالمية، تحفها من جوانبها المختلفة مراكز حضارات العالم القديم، الهند والصين من الشرق، وأوروبة من الشمال والغرب. وتبادل المنافع التجارية المتعاظمة مع سواحل الشرق الإفريقي عن طريق مسقط وصحار في عُمان وعدن، وغدت أراضيها نقطة التقاء الطرق التجارية الذاهبة من شمال أوروبة عبر أراضي بيزنطة إلى شمال البحر الأسود وبحر قزوين إلى خراسان والري. والطرق المؤدية من غرب أوروبة وشمالها المارة بالبندقية ثم المتوسط.

فالوضع الناشئ عن قيام الخلافة العربية الإسلامية بمقاييس امتدادها العالمي، أعاد اتصال الغرب - كما يقول لومبار - مع الحضارات الشرقية، ومن خلالها مع الحركات العالمية الكبرى للتجارة والثقافة[٢]. وغدت دار الإسلام تقع في منطقة المضايق، بين الخليج العربي، والبحر الأحمر، والبحر الأبيض المتوسط، والبحر

---

(١) نقولا زيادة. الجغرافية والرحلات عند العرب، ص١١، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٦٢م.

(٢) موريس لومبار. الإسلام في عظمته الأولى، ص٩، ترجمة: ياسين الحافظ، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٧م.

الأسود، وبحر قزوين؛ أي في منطقة تشكل صلة وصل بين منطقتين اقتصاديتين كبيرتين: منطقة المحيط الهندي ومنطقة البحر الأبيض المتوسط. هاتان المنطقتان اللتان توحدتا في العصر الهلنستي، ثم انفصلتا إلى عالمين متنافسين الرومي - بيزنطي، والبارثي - الساساني، امتزجتا من جديد بفضل الفتح الإسلامي في منطقة جديدة واسعة موحدة اقتصادياً[١]. فصار المجال الإسلامي برزخاً تتلاقى عليه خطوط التجارة العالمية وتتقاطع، ثم تتفرع التجارة منه إلى أوروبة وبقية العالم. فكانت التجارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي كما يقول متز، مظهراً من مظاهر أبهة الإسلام، وصارت هي السيدة في بلادها، وكانت سفن المسلمين وقوافلهم تجوب كل البلاد والبحار، واحتلت تجارة المسلمين المكان الأول في التجارة العالمية، حيث غدت بغداد والإسكندرية هما المدينتان اللتان تقرران الأسعار العالمية في ذلك العصر، في البضائع الكمالية على الأقل[٢].

وبالإضافة إلى دور الوسيط التجاري بين أوروبة والشرق الأقصى، فإن العرب - المسلمين لم تتوقف علاقاتهم التجارية مع

---

(١) المصدر نفسه، ص١٣.

(٢) آدم ميتز، الحضارة العربية في القرن الرابع الهجري، الجزء الثاني، ص١٧٢، ترجمة: عبد الهادي أبو ريدة، ط٢، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٤٨م.

أوروبة، إذ وجد الدارسون في إسكندينافيا، وفي السويد خاصة عشرات الآلاف من النقود الإسلامية تحمل نقوشاً يرجع تاريخها إلى القرن الحادي عشر الميلادي، وهي فترة ازدهار التجارة الإسلامية؛ كما يؤيد ما وجد من قطع نقود على مجرى الفولغا (آل) ما في المصادر الأوروبية من شواهد على قيام تجارة واسعة بين الإمبراطورية الإسلامية وبلاد البلطيق عبر بحر الخزر والبحر الأسود والروسيا، وأهم ما كان يأخذه العرب من هذه البلاد هو الفراء و العبيد. وتبدو أهمية التجارة العربية مع الشمال الأوروبي بصورة أوضح في حقيقة أن النقود السويدية المعروفةَ أساسُها الدرهم، وأن كلمات عربية كثيرة موجودة في الأدب الآيسلندي القديم(١).

وكانت هناك أنشطة تجارية على مجاري نهر الفولغا والدون والدنيبر، واحتلت مدينة كييف على الدنيبر أهمية خاصة في تجارة المسلمين مع الصقالبة، كما كانت نقطة وصل مع وسط أوروبة، إذ كانت تستلم البضائع من براغ وريفنسبرغ في ألمانية عبر بلاد الصقالبة والهنغار الفاصلة بين أوكرانيا ووسط أوروبة، وكان التجار الوسطاء في هذه المبادلات من المسلمين واليهود، ولم يكن طريق الدنيبر إلا واحداً من الطرق التي أدت من وسط أوروبة وغربها إلى دار الإسلام؛ فقد صدَّرت براغ بضاعتها عبر مدينة البندقية إلى

(١) برنارد لويس، العرب في التاريخ، ص١٢٥- ١٢٦، تعريب: أمين فارس ومحمود يوسف زايد، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥٤م.

القسطنطينية أو مباشرة إلى مصر؛ وتم استيراد السيوف الفرنجية عن طريقي الأندلس وبلاد الصقالبة، والقصدير البريطاني عن طريق إسبانية والبندقية(١).

فعلى عكس ما يذهب إليه هنري بيرين من أن سيطرة العرب على المتوسط قطعت سريان التبادلات التجارية بين أطرافه، وأضعفت الحياة المدنية في أوروبة، يؤكد كلود كاهن ومعه آخرون، أن الاتصالات وإن لم تتم بين العالمين الإسلامي والأوروبي المسيحي بشكل مباشر حتى القرن العاشر ميلادي، فإن هذا لم يمنع من أن يلعب اليهود والمسلمون، المنتمون إلى غرب المتوسط، دوراً تجارياً. وظل سيل الاتصالات محصوراً إلى حين في مناطق معينة مثل البندقية وشمال أفريقيا وما يجاورها، وبيزنطة وجوارها(٢).

وفي حال بيزنطة، فعلى الرغم من أجواء التهديد المتبادل، لم تنقطع العلاقات التجارية والثقافية، بل والسياسية، بين العالمين الإسلامي والبيزنطي، وقد بين جب أن هذه العلاقات المتنوعة تجاوزت حقبة العداوة السابقة، فرغم أن الروم كانوا في نظر العرب العدو الذي طردوه من الشام ومصر، وأخذوا يتعقبونه بحراً في قبرص ورودس،

(١) عزيز العظمة. العرب والبرابرة - المسلمون والحضارات الأخرى، ص٢٨-٢٩، دار الريس، لندن، ١٩٩١م.

(٢) كلود كاهن، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ص٥٩، ترجمة: أحمد الشيخ، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٥م.

إلا أنه لما قامت الدولة الأموية أخذت الحال تتغير تغيراً دقيقاً. وكانت البندقية في القرن الرابع تمد العرب بالخشب لبناء السفن[١].

ويؤكد آشتور على هذه الواقعة بقوله: «ورغم أن الإمبراطورية البيزنطية، كانت لمدة أربعة قرون العدو التقليدي للإمبراطورية الإسلامية، وأن الحرب المتقطعة استمرت عبر العصور، فإن المسلمين مارسوا التجارة المستمرة معها، ويبدو أن طربزون كانت المركز التجاري للإمبراطورية البيزنطية، حيث حصل التجار المسلمون على الجزء الأعظم من المنتجات الإغريقية، والمطرزات، والمواد الأخرى التي يرغبون في الحصول عليها»[٢].

ولقد غدا البحر المتوسط لفترة طويلة في قبضة العرب - المسلمين، إذ لم يعد لأوروبة، كما يذهب ميتز، سلطان عليه خلال القرن العاشر الميلادي، «فقد كان بحراً عربياً، وكان لا بد لمن يريد أن يقضي لنفسه فيه أمراً من أن يخطب ود العرب، كما فعلت نابولي وغيته وأمالفي»[٣]. ويذهب بردويل بالاتجاه نفسه، حيث يشير إلى أنه خلال

---

(١) هاملتون جب، دراسات في حضارة الإسلام، ص٦٣ ترجمة: إحسان عباس، محمد يوسف نجم ومحمود زايد، ط٣، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩م.

(٢) أ، آشتور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصر الوسيط، ص١١٨، ترجمة: عبد الهادي عبلة، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٥م.

(٣) ميتز. المصدر السابق، ٢/ ٣١٧.

القرنين التاسع والعاشر الميلاديين سيطر العرب، في ذروة ألق حضارتهم، على المتوسط، وكانت المسيحية، على حد تعبيره «لا تكاد تستطيع أن تعوِّم فيه قطعة خشب»[(١)].

ولكن هذا لم يقطع سبل الاتصال ما بين العالمين العربي والأوروبي، فإذا كان التجار العرب - المسلمون لم يقوموا هنا بدور الوسيط التجاري المباشر بين هذين العالمين، كما فعلوا في بحار آسيا، والأحمر، وذلك لعدم سماح الأوروبيين بوجود جالية إسلامية بين ظهرانيهم، فقد استعان العرب بالوسطاء الآخرين للاتّجار مع أوروبة، فكان التجار اليهود يأتون من مقاطعة بروفانس بفرنسا، ويسافرون بين الشرق والغرب، ويحملون من فرنسا الخدم والجواري والديباج والخز الفائق، والفراء والسمور. ويركبون البحار ويخرجون إلى الفرما بمصر، ثم يحملون تجارتهم إلى القلزم (البحر الأحمر)، ثم يركبون البحر الشرقي إلى جدة، ثم يبحرون إلى السند والهند والصين[(٢)].

فهناك ما يميز اتصال العرب - المسلمين بأوروبة عن اتصالهم بالهند والصين، وكذلك أشكال علاقاتهم وسبلها، ففي الشرق وجد الرحالة العرب - المسلمون والتجارُ الحدودَ مفتوحة أمامهم، فأينما

(١) فرناند بردويل. البحر المتوسط: المجال والتاريخ، ص١٤، ترجمة: يوسف شلب الشام، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٠م.

(٢) ميتز. المصدر السابق، ص٢٧٣.

ذهبوا إلى الصين والهند وجدوا جاليات إسلامية بانتظارهم، أما في بيزنطة وبلاد الإفرنج، فلم يقبل أهلها وحكامها بوجود جاليات إسلامية بديارهم، فقد وجدوا فروقاً جذرية في علاقاتهم بالعالمين الشرقي والأوروبي. فالإمبراطورية الفارسية تداعت كلياً أمامهم، وعرفوا أن الهند والصين يعبدون آلهة متعددة، فاستنتجوا أنهم مهيؤون لدخول الإسلام، «أما الحاجز البيزنطي، فقد اهتز ودفع إلى الخلف أمام الزحف الإسلامي، ولكنه بقي صامداً. وظلت الإمبراطورية الرومانية المسيحية حية يحكمها قيصر في القسطنطينية، وحين كانت أساطيله وجيوشه تدافع عن مدينتها، فإنها لم تكن تحافظ على بقايا الإمبراطورية البيزنطية فحسب، بل أيضاً عن أوروبة المسيحية»[١].

إلا أن مجال الاتصال بين العالمين، على الرغم من تميزه عن الصلات القائمة بين المسلمين والهند والصين، لم يقتصر على التجارة وسبلها، فقد تعداه إلى الثقافة والسياسة، والتأثر بالنظم، وتبادل الرحلات والسفراء، إذ تخلل هذا المناخ العام من الحذر الممتزج بالإعجاب، علاقات ثقافية وسياسية، فضلاً عن التجارية، إذ كان المجال الثقافي العربي الإسلامي منطقة تجارة عالمية كبرى، تعاملت

---

(١) برنارد لويس، السياسة والحرب، تراث الإسلام، قسم أول، ص٢٥٨، تصنيف شاخت، وبوزورث، ترجمة: محمد زهير السمهوري، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٧٨م.

مع ما خرج عن مجالها الثقافي تعاملاً تجارياً من ناحية، وتعاملاً معرفياً من ناحية أخرى، وذلك عن طريق الرحلة التجارية والسفارة والكتب. وقد أهّل موقع العرب الراجح في العالم الوسيط، لأن يتغذوا بالثقافات الأخرى، ويتعرفوا عليها من موقع الثقة بالذات، فضلاً على أن الثقافة العربية - الإسلامية لم تكن وليدة حضارة تداخلت واتصلت بكل الحضارات الأخرى القائمة في زمانها فحسب، وإنما كانت - خلافاً للحضارتين الصينية والهندية - مسرحاً للتاريخ العالمي في زمانها، وكانت العامل الفاعل والأساسي في علاقاتها بالآخرين. إذ كانت هي عصب التجارة الدولية، كما احتلت في العالم موقعاً مركزياً، مطلاً على جميع الأطراف، وكانت هي المتوسطة والنشطة والنامية ثقافياً وحضارياً، والمنتجة للجدة(١).

فاستطاع العرب - المسلمون التعرف على ثقافة الفرس، والهند، والصين، فضلاً عن الثقافة اليونانية، بينما لم تتعرف أوروبة الغربية على تلك الثقافات حتى عصر النهضة، كذلك فقد تعرفوا على خبرة الحكم والإدارة، وتراث بيزنطة الشرقية، في وقت كانت فيه أوروبة، كما يقول لويس: «معزولة بين المياه المتجمدة شمالاً، ومياه المحيط غرباً، والإسلام جنوباً، والبراري شرقاً، أما الإسلام فكان على

(١) العظمة، المصدر السابق، ص ١٧، و٢٣٠.

اتصال دائم مع الحضارات المزدهرة في الهند والصين، في ساعات الحرب أو السلم»[١].

لهذا يلاحظ كراتشكوفسكي الاتساع الهائل في مدى المعلومات عن العالم لدى المسلمين، بالمقارنة بما عرفه العالم القديم، فقد عرف العرب أوروبة بأجمعها باستثناء أقصى الشمال، وعرفوا النصف الجنوبي من روسيا، كما عرفوا أفريقيا الشمالية إلى خط عرض ١٠ درجات شمالاً، وجانب أفريقيا الشرقي إلى قرب مدار الجدي، وترك العرب وصفاً دقيقاً لجميع النقاط المأهولة، وللمناطق المزروعة، والصحارى، وتبينوا انتشار النباتات المزروعة، وأماكن وجود المعادن[٢].

وأفضى هذا الوضع المواتي الذي كان العالم الإسلامي ينعم به، وذكريات الانتصارات الباهرة الأولى التي أحرزتها جيوشه على بيزنطة وغيرها، إلى صبغ ومزج إحساسه كما يقول غرونيباوم «بالاكتفاء الذاتي بشعور من التفوق، كانت أحداث الزمان اللاحقة تفقده مبرراته»[٣]. وبالتأكيد فإن حالة ميزان القوى بين الطرفين أثرت على زاوية رؤية كل منهما إلى الآخر، فقد ظلت بيزنطة ومعها أوروبة في حالة دفاع عن النفس حتى القرن الحادي عشر، فقبل الحروب

---

(١) برنارد لويس، الإسلام والغرب، ص١١، دار الرشيد ومؤسسة الإيمان، بيروت، ١٩٩٤م.

(٢) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص٢٢، القسم الأول، ١٩٩٤م.

(٣) جوستاف أ، فون غرونيباوم. حضارة الإسلام، ص١٥، ترجمة: عبد العزيز توفيق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة (سلسلة عالم الأسرة)، دون تاريخ.

الصليبية، لم يحدث قط أن الإمبراطورية البيزنطية ولا أوروبة هددها الإسلام بصورة جدية[١].

إلا أن المناخ العام من الحذر الذي أحاط علاقة العرب - المسلمين ببيزنطة، لم يمنع العلاقات السلمية بينهما، فامتزج موقف العداوة المتبادلة بالإعجاب، يقول غرونيباوم: «من العجب أن يلحظ المرء كيف تسامت هيبة العرب من القسطنطينية، في الوقت نفسه الذي بلغت فيه علوم اليونان أقصى نفوذها في بغداد»[٢].

وتتجلى المنزلة الكريمة التي كانت تتمتع بها كل من الحضارتين في أرض الأخرى، بأحسن ما تتجلى في قصة ليون عالم الرياضيات البيزنطي، فقد اتفق أن أسر العرب يوماً أحد تلاميذ ليون، فأحضروه إلى المأمون، حيث أحدث وقعاً حسناً بحضور المأمون، بإظهاره الطرائق الصحيحة في الاستدلال الهندسي، فلما سئل عن معلمه، وهل ما يزال حياً، أوضح لهم أن ليون يعيش مهملاً منسياً. فأرسل المأمون من فوره كتاباً إلى ليون يدعوه للحضور إلى بغداد، فعرض ليون الأمر على موظف بيزنطي كبير، أبلغه بدوره إلى الإمبراطور، فتنبه الجمهور والقادة من جراء هذه الدعوة لمواهب ليون، فعينه الإمبراطور معلماً عاماً في كنيسة الأربعين شهيداً. فلما

(١) المصدر نفسه، ص٥٠.

(٢) المصدر نفسه، ص٧٧.

علم المأمون بإحجام ليون عن الشخوص إلى بغداد، بادر إلى مراسلته مقدماً إليه عدداً من المسائل الهندسية والفلكية، ثم تحول إلى الإمبراطور نفسه يطلب منه أن يرسل إليه ليون، واعداً إياه بأجزل العطاء، ولكن الإمبراطور لم ير من الحكمة أن ينزل عن كنزه لسواه[١]؛ رغم أن المأمون قال في رسالته إلى الإمبراطور البيزنطي ثيوفيل أنه يعتبر سماحه لليون بالمجيء إلى بغداد عملاً ودياً، يعرض عليه في مقابله صلحاً دائماً، وألفي قطعة ذهبية، غير أن ثيوفيل رفض هذا العرض السخي[٢] ليحتفظ بكنزه الثمين.

بيد أن جواب ثيوفيل لم يغلق باب الاتصالات، فقد أرسل الإمبراطور ثيوفيل نفسه عام ٨٢٩م إلى الخليفة المأمون يطلب منه تبادل الأسرى، وإعادة الحياة الاقتصادية بين المسلمين والروم، وجاء في الرسالة: «لقد كتبت إليك داعياً إلى المسالمة، راغباً في فضيلة المهادنة لتضع الحرب أوزارها عنا، ويكون كل واحد لكل واحد ولياً وحزباً، مع اتصال المرافق والفسح في المتاجر، وفك المستأسر، وأمن الطرق»[٣].

في مقابل هذه العلاقات الرسمية - الثقافية، كان يسمح للمسلمين

---

(١) المصدر نفسه، ص٧٨-٧٩.

(٢) إبراهيم أحمد العدوي. السفارات الإسلامية إلى أوروبة في العصور الوسطى، ص١٩، (سلسلة إقرأ ١٧٩) دار المعارف بمصر، ١٩٥٧م.

(٣) المصدر نفسه، ص١٤.

بزيارة مكتبات القسطنطينية، والاطلاع على الكتب التي يحتاجونها في دراساتهم المختلفة، وعاد بعضهم بالكتب النادرة[١]. فلا يمكن نسيان تأثير مؤلفات بطليموس وغيره من الجغرافيين اليونان، فضلاً عن فلاسفتهم - ولا سيما أرسطو وأفلاطون - على الثقافة العربية، التي قامت بدورها في إحياء الروح الفلسفية والعلمية مجدداً في أوروبة.

وهكذا بقي هامش من الوقت تبادل فيه الخلفاء المسلمون وقياصرة الروم الرسائل والهدايا، عن طريق الرسل، مع التبادلات الثقافية التي لم تتوقف، وامتزجت أحياناً السفارة بوظيفة ثقافية، فيروى أن المأمون، الخليفة العباسي الكبير، رأى في منامه أرسطو، الذي أخبره أن الحسن ما استحسنه العقل، وفي الشريعة هو ما استحسنه النص. فطلب المأمون الكتب من الإمبراطور البيزنطي، فوافق الأخير على الطلب بعد شيء من التسويف. وعند ذلك أرسل المأمون بعض العلماء إلى القسطنطينية للحصول على المخطوطات، وأرسل فيمن أرسل سهيلاً صاحب دار الحكمة[٢].

تعمقت لدى العرب - المسلمين معرفة الجار الأوروبي، وغيره من الجيران، وذلك بالتزامن مع العلاقات السياسية والتجارية والثقافية، وساعد على ذلك حركة الترجمة في القرن الثالث الهجري - التاسع الميلادي، وتوسع دائرة الرحلات والسفارة الجاسوسية إلى أوروبة.

(١) المصدر نفسه، ص١٩.

(٢) غرونيباوم، المصدر السابق، ص٧٧.

فبدأت تتضح لدى العرب - المسلمين بصورة تدريجية معالم صورة أوروبة، والتعرف على الآخر الأوروبي. فظهرت لديهم أوروبة وكأنها تتوزع إلى ثلاث مناطق، منطقة السلاف الصقالبة، ومنطقة رومية وبيزنطة، ومنطقة الفرنجة وما يحيطها في الشمال من النورمان والإسكندنافيين[١].

وهكذا فمع التشجيع الديني على الرحلة للتفكر بخلق الله، والاعتبار بحوادث الأمم الدارسة والباقية، أتى دور الدولة الإسلامية، التي غدت قوة عالمية كبرى، لتسهل على الرحالة ترحالهم، فقد كان لا بد لهذه الإمبراطورية الواسعة الأرجاء من أن تكون على دراية بأوضاع البلاد التابعة لها، وبأحوال البلاد المجاورة التي يمكن أن تكون مصدراً للتهديد أيضاً. فقد أرسل أكثر الخلفاء السفارات الدبلوماسية والعلمية إلى بلاد أوروبة في الشرق، وبيزنطة وبلاد الإفرنجة. فكانت هناك سفارة عمارة بن حمزة، الذي حمل رسالة المنصور إلى ملك الروم، ورحلة سلام الترجمان إلى بلاد الشمال، بأمر من الواثق، وسفارة يحيى الغزال إلى بريطانيا، من طرف عبد الرحمن الثاني، فضلاً عن الجواسيس، وما نقله الأسرى المحررون من معلومات[٢].

فإذا أردنا وضع الرحلات العربية والجغرافية في الإطار السياسي، يتضح مدى ارتباطها الحميم بالخلافة الإسلامية، وتوطد مكانتها

(١) أندريه ميكيل، أوروبة في نظر العرب حتى عام ألف، ص٩٠، ترجمة: عادل عوا، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٨٣م.

(٢) حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، المصدر السابق، ص٥٠-٥١.

العالمية؛ إذ عكست تلك الرحلات - وما ارتبط بها من جغرافيا - بأمانة كافية أزمنة ازدهار الخلافة وانهيارها.

(فصورة الأرض) التي يعود تاريخها إلى المأمون تقسم العالم إلى أقاليم من حول بغداد، التي غدت تبعاً لهذا التصور مركز العالم، وسرته. ورتب الأدبُ الإداري، عند أصحاب الجغرافيا الإدارية، مع ابن خرداذبة واليعقوبي، حول بغداد/ المركز، المناطقَ والطرق والضرائب. كما نشأ أدب السفارة بتشجيع من السلطة المركزية ذاتها في بغداد، وتطور أدب الرحلات، المتعلق بالمجال الأوروبي، بالارتباط بالهموم السياسية والتجارية للخلافة[١].

ففي ظل ازدهار الدولة العباسية واتساعها، تعددت أسباب الرحلة وحوافزها، إذ حبب إلى الناس الهجرة من بلادهم للاطلاع على أحوال البلاد الأخرى، وذلك شأن الأمم القوية أيام ازدهارها، وقام علماء الرحلات يصنفون مشاهداتهم، وسهلت الحكومات مسار الرحلات والهجرات، ببناء رباطات ينزل بها المسافرون والرحالة والتجار، ويتزودون بها، والتي كانت في الأصل نقاطاً عسكرية لحفظ الحدود، أو نقاطاً بريدية، ثم أضافوا لها غرضاً آخر هو معونة التجار والمسافرين[٢].

---

(١) أندريه ميكيل، جغرافية دار الإسلام البشرية، الجزء الأول، القسم الثاني، ص١٥١، ترجمة: إبراهيم خوري، وزارة الثقافة، دمشق.

(٢) أحمد أمين، ظهر الإسلام، الجزء الثاني، ص٢١٠ و٢١٥، دار الكتاب العربي، ط٥، بيروت، ١٩٦٩م.

وغدت الرحلة عنصراً قوياً في حياة المجتمع الإسلامي في عصوره الزاهية، فقد رحل الناس للحج، ولزيارة مهبط الوحي، ورحل الناس في طلب العلم من قطر إلى آخر، إلى مراكز العلم المنتشرة في أنحاء مملكة الإسلام، ورحل الناس في سبيل الاتجار، إذ كانت الأسواق الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها مرتبطة ببعضها البعض. بل لعل الرحلة كانت أقوى في عهد التفرق السياسي، لترسخ الشعور بوحدة الجماعة الإسلامية، ولاعتياد العالم الإسلامي على أسلوب معين من المعيشة، ونوع من الحياة، ولون من التفكير، ولانتشار اللغة العربية في شتى الأقطار. فدوّن الكثير من الرحالة العرب أخبار رحلاتهم وأسفارهم، فذكروا المدن التي هبطوا فيها، والمسافات التي اجتازوها، ووصفوا البلاد وزرعها وصناعاتها وتجارتها، وأتوا على وصف حياة السكان، فتعرضوا للطيب من عاداتهم بالمديح، وعابوا ما فيها من ضعف[١].

وكان من أهم أسباب تدوين الرحلات عند العرب المسلمين حاجة الدولة إلى معرفة الطرق الكبرى التي تصل الأقاليم بعضها ببعض، واقترنت هذه الحاجة السياسية بقضاء فريضة الحج. فوصف الكثير من الحجاج مشاهداتهم إلى الأماكن المقدسة، وبجانب ذلك كان التجار يضربون في أراضي جديدة، عن طريق القوافل في البر،

(١) نقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب، ص١٥، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٠م.

وعن طريق السفن في البحر، وكانت السفارات لا تفتر بين الدول العربية - الإسلامية والدول المجاورة. كما أن مصالح الدولة التي غدت قوة عالمية، حالت دون اكتفائها بمعرفة أراضيها وحدها، بل صار من الضروري لها أن تحصل على معلومات دقيقة عن الأقطار الأخرى، خاصة المتاخمة لها، فأتتها المعلومات عن طريق سفاراتها، وعن طريق أسراها المحررين، حيث دونوا معلوماتهم عن البلاد التي دخلوا إليها[١].

وقد أجمل ابن الفقيه القول في الغربة - الرحلة، التي عدت حكاياتها وعجائبها محببة في هذا العصر: «قال الله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ۝١٥﴾ [الملك: ٦٧/ ١٥](وقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ٦٢/ ١٠](وقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ٣٠/ ٩] وقال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧٠]، وروى الزبير بن العوام، قال رسول الله (ﷺ): البلاد بلاد الله والعباد عباد الله فحيث ما أصبت خيراً فأقم. وقال ﷺ: سافروا تغنموا. وقال (ﷺ): موت الغريب شهادة.. وقال النبي يوسف (عليه السلام): من كان الله معه لا غربة عليه... وقال شريح بن عبيد:

---

(١) كراتشكوفسكي، المصدر السابق، ص١٩.

ما مات غريب في أرض غربة.. إلا بكت السماء عليه والأرض.. وقال معاوية للحارث بن الحباب: أي البلاد أحب إليك؟ قال: ما حسنت فيه حالي، وعرض فيه جاهي. وأنشد:

فلا كوفةٌ أمي ولا بصرةٌ أبي ولا أنا يثنيني عن الرحلة الكسل

... وقال بعضهم: اطلبوا الرزق في البعد، فإنكم إن لم تغنموا مالاً كثيراً غنمتم عقلاً كبيراً.. وقالوا: لا توحشك الغربة إذا أنست بالكفاية، ولا تجزع لفراق الأهل مع لقاء اليسار، وقالوا: الفقر أوحش من الغربة، والغنى آنس من الوطن، وترك الوطن أدنى إلى فرح الإقامة. وقيل: الفقير في الأهل مصروم، والغني في الغربة موصول».

ثم يختم حديثه عن الغربة - الرحلة بالقول: «وقالوا: الحنين إلى الأوطان من أخلاق الصبيان، وفي طول الاغتراب فوز الاكتساب، وفي فائدة صالح الإخوان مع النزوح عن الأوطان سلو عن مقارنة الجيران. ولولا اغتراب الناس عن محالهم ضاقت بهم البلدان.. قال: ولولا اغتراب المغتربين ما عرف ما بين الأندلس إلى الصين»[(١)].

لقد كتبت في عصر ألق الحضارة العربية - الإسلامية تصانيف كثيرة عن العالم غير الإسلامي، بما فيه أوروبة، كما لو أن الشعور

(١) أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص٤٧، ٥٠، طبع مدينة ليدن ١٣٠٢هـ، دار صادر، بيروت، دون تاريخ.

بالوحدة الداخلية التي تجمع الأمة الإسلامية، بما يحمله من ثقة بالذات ومعرفتها، قد نقل حب الاطلاع إلى الحدود، فأمضت دار الإسلام ثلاثة قرون، من منتصف القرن السابع الميلادي حتى منتصف القرن العاشر، تعمل على اكتشاف تنوع البشرية تحت وحدة رسالتها[١].

ولقد تنوعت الرحلات العربية في العصر الوسيط بتعدد أسبابها ووظائفها. فهناك رحلات قامت لدواعي الإيمان أو المعرفة الدينية، وهناك الرحلة الاستكشافية - المعرفية، فضلاً عن الرحلات التجارية والإدارية والرحلات التي قامت بغرض سياسي: كالسفارة والجاسوسية.

فإذا كانت الرحلات العربية - الإسلامية إلى بلاد الشرق الأقصى قد امتزجت بالتجارة والفضول المعرفي، فإن رحلاتهم إلى أوروبة طغى عليها الهم السياسي أولاً، والهم المعرفي ثانياً. وهو الأمر الذي أشار إليه ميكيل بقوله: «فإذا كانت التجارة فيما وصلنا من قصص، قضية مرتبطة بالرياح الشرقية الخاصة، والرياح الجنوبية ثانوياً، فإن السياسة توجه أنظارنا بالأولوية بأشكال السفارة والتجسس أو الحرب، إلى الجوانب الشمالية من تركستان وإلى أوروبة المتوسطية»[٢].

---

(١) ميكيل، جغرافية دار الإسلام البشرية، ج١، ق١، ص٢١٠.

(٢) المصدر نفسه، ص٢١٠.

اقترنت الرحلات السياسية بالسفارات المتبادلة بين مركز الخلافة في بغداد أو قرطبة، فضلاً عن الجواسيس والأسرى، ومن أقدم السفارات سفارة يحيى بن الحكم البكري (الغزال((ت٢٥٠هـ - ٨٦٤م)، الذي بعثه عبد الرحمن بن الحكم أمير قرطبة إلى القسطنطينية، وإلى بلاد النورمان في الشمال، وسفارة ابن فضلان إلى بلاد البلغار، وسفارة إبراهيم بن يعقوب إلى الإمبراطور أوتو. أما الجواسيس فأقدمها جاسوسية سيد الغازي الذي استعان به هارون الرشيد للتجسس على بلاد الروم عشرين سنة. والأسرى، كرحلة الجرمي إلى بلاد الروم، ويحيى بن هارون. أما الرحلات الدينية فتأتي في مقدمتها رحلة عبادة بن الصامت، والهروي، ومحمد بن موسى. أما الرحلات الاستكشافية، فتأتي في مقدمتها رحلة سلام الترجمان إلى ما يعرف بسد يأجوج ومأجوج في الشباب، ورحلة الشباب المغرَّرين في المحيط الأطلسي.

فكانت أول الصور التي التقطها العرب - المسلمون عن أوروبة، قد بدأها الرحالة، والتي وجدت السبيل إلى التدوين لأول مرة عند الجغرافي ابن خرداذبة. الذي عكس بدايات تشكل صورة أوروبة في الآداب الإسلامية[(١)].

واختلطت معلومات الرحلات، في كثير من الأحيان، بالمدونات

(١) خالد زيادة، تطور النظرة الإسلامية إلى أوروبة، ص١٦، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٨٣م.

الجغرافية، إذ لم يدون الرحالة العرب أخبار رحلاتهم الأولى، ولكننا لا نصل إلى القرن الثالث الهجري - التاسع الميلادي، ونقرأ كتب الجغرافيا والتاريخ حتى نجدهم - وقد دونوا أخبار الرحلات الأولى- قد عرفوا معرفة دقيقة أخبار الأمم من حولهم[1].

فثمة ما يشير إلى أن العرب لم يستطيعوا أن يكونوا صورة قريبة من الوضوح عن أوروبة إلا في القرن التاسع الميلادي، مع تراكم الترجمات والتعرف على جغرافيا بطليموس، والجغرافيا اليونانية، وازدياد المشاهدات الشخصية للسفراء والرحالة والتجار، مما مهد لقيام جغرافيا عربية تستقي من تلك المصادر، التي تقف في مقدمتها الرحلة، معلوماتها المتناثرة عن أوروبة، فظهر أمثال ابن خرداذبة وابن واضح واليعقوبي، ثم ابن رستة وابن حوقل والاصطخري[2].

ويمكن القول أن ما كتبه المؤلفون الإسلاميون، فيما بين القرنين الثالث والخامس الهجريين عن الرحلات كثير جداً، ولكن المعروف أن أكثر الرحالة لم يدونوا أخبار رحلاتهم إلا نادراً، أما معظمهم فقد حفظها لهم ودونها أصحاب كتب التاريخ والجغرافيا[3]. فنحن لا نعرف الكثير من مشاهدات الرحالة إلا من خلال مقاطع من

---

(١) شوقي ضيف، الرحلات، ص٤٩، دار المعارف، مصر، ص٤، دون تاريخ.

(٢) زيادة، المصدر السابق، ص١٣.

(٣) حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، ص١٠٥، (سلسلة عالم المعرفة ١٣٨)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٩م.

مصنفات نقلها كتاب آخرون، إذ إن التاريخ لم يحفظ لنا من الرحلات العربية إلى أوروبة حتى القرن العاشر الميلادي، سوى ثلاثة نصوص أساسية لرحالة هذا العصر، وهي رسالة ابن فضلان، ورسالتا أبي دلف مسعر[1]. فقد تداخلت الرحلة والمصنفات الجغرافية، وتشابكت، فهناك جغرافيون حفظوا لنا وقائع الرحلات، كما أن هناك جغرافيين رحالة اعتمدوا على مشاهداتهم المباشرة أساساً. فالجغرافيون الأوائل كابن خرداذبة وابن رستة وابن الفقيه واليعقوبي، حفظوا لنا الكثير من الرحلات، حيث دون ابن خرداذبة والمسعودي رحلة محمد بن موسى إلى الرقيم، وحفظ لنا ياقوت الحموي وابن القفطي رحلة ابن فضلان، وحفظ لنا رحلة عبادة بن الصامت كل من ابن الفقيه والحموي والقزويني. وذكر ابن خرداذبة والحموي والقزويني والغرناطي والإدريسي والنويري رحلة سلام الترجمان إلى الشمال. كما ذكر ابن خرداذبة والمسعودي وابن الفقيه وقدامة بن جعفر، رحلة مسلم الجرمي (الأسير)، وذكر لنا ابن دحية والمقري شذرات من رحلة الغزال إلى القسطنطينية وبلاد النورمان. ودون البكري والقزويني وياقوت والإدريسي رحلة إبراهيم بن يعقوب. وذكر المسعودي والإدريسي والمغربي رحلة المغرَّرين. وبالمقابل فقد دانت المصنفات الجغرافية الأولى لمشاهدات الرحالة وموظفي البريد والتجار الذين استمروا في تقديم القسم الأعظم من

(١) ميكيل، جغرافية دار الإسلام البشرية، ١/ ٢٢٧، ق١.

الوثائق والمعلومات للكتاب القاعدين وراء مكاتبهم، المعتمدين على الوثائق المكتوبة والمتناقلة[١]. فقبل أن تظهر المصنفات الجغرافية الناضجة في القرن التاسع والعاشر الميلاديين، كنا نقابل معلومات عن البلدان المختلفة، بما فيها البلاد الأوروبية، عن طريق الرحلات التي بدأت كرحلات خيالية دينية كرحلة تميم الداري، أعقبتها رحلات استكشافية عن الفداء والأسرى، وعندما قامت المصنفات الجغرافية الناضجة في القرن التاسع، تغذت بتلك المعلومات، وحفظت لنا الكثير من الرحلات السابقة[٢].

ثم ظهر الرحالة الجغرافيون، وبجانبهم الرحالة الذين صنفوا رحلاتهم، وذلك في القرن العاشر، وأيضاً في القرون التالية.

---

(١) حيدة، المصدر السابق، ص٧٢.

(٢) كراتشكوفسكي، المصدر السابق، ص٢٠.

تعارف الحضارات(*)

د. فاروق اسليم(**)

- ١ -

ثمة مقولتان مهمتان انشغل بهما عدد كثير من رجال الفكر والسياسة في الربع الأخير من القرن العشرين، الأولى: حوار الحضارات، والثانية: صراع الحضارات.

لقد جاءت الدعوة إلى حوار الحضارات خوفاً من ويلات حروب عالمية قد تقع، وسعياً من أجل حلّ مشكلات إنسانية مزمنة (الجوع، الفقر، الجهل، المرض) وأخرى مستحدثة (تلوث البيئة، الإفراط المادي والتكنولوجي).

ويعد كتاب (من أجل حوار بين الحضارات) لمؤلفة روجيه غارودي من أفضل ما كتب في الدعوة للحوار بين حضارات

(*) مقالتان نشرتا في صحيفة البعث السورية في ٢٤ كانون الأول (ديسمبر ١٩٩٩م، و٧ كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٠م.

(**) كاتب من سورية.

الشعوب المعاصرة نضجاً وانفتاحاً واستيعاباً للتاريخ، وقد صدر في طبعته الفرنسية عام ١٩٧٧م، وقد ترجم إلى العربية، وطبع أكثر من مرة، ومما جاء فيه: «إن المشكلة هي مشكلة إحداث تغيير جذري في الأنموذج الغربي لعلاقاتنا مع الطبيعة بفضل حكمة الصين وأفريقيا والهند والإسلام..» وقد نوه مؤلفه بفضل الثقافة العربية الإسلامية على الحضارة الإنسانية، وكذلك نوه بمساهمات الثقافة الصينية والهندية والإفريقية والأمريكية اللاتينية. وندّد بمحاولات الغرب لطمس تلك الثقافات، ولتجاهل أثرها في الحضارة الإنسانية.

وقد نادى غارودي بقيام ثورة ثقافية لتيسير الحوار بين الحضارات الإنسانية، ويذكر من شروطها أن تحتل الحضارات غير الغربية مكانة لا تقل عن مكانة الحضارة الغربية في الدراسة، وأن يُنظر إلى الفلسفة على أنها طريقة للحياة، لا بحث فكري خالص، وأن تكون للدراسات المستقبلية أهمية لا تقل عن الاهتمام بدراسة التاريخ.

كانت دعوة غارودي إلى حوار الحضارات صرخة في محيط استقرت فيه مقولة المركزية الأوروبية للحضارة الإنسانية، فهي في الغرب الأوروبي، وفي امتداداته، فكرة مسيطرة وطاغية، ولا ترى في الآخر نداً حضارياً، ولا مشاركاً في بناء حضارة الإنسان، ولا مؤهلاً للإسهام الحقيقي فيها مستقبلاً. ومن الكتب الصارخة بذلك «ملامح المستقبل أو خطوط الأفق» الصادر بالفرنسية عام ١٩٩٠م، لمؤلفه جاك أتالي، وهو خبير اقتصادي، ومستشار سابق للرئاسة

الفرنسية، ولكن كتابه لم يُشر من قريب أو بعيد للعرب أو للمسلمين، سوى ذكره لرسولنا محمد ﷺ في سياق حديثه عن ظهور كثير من الرجال والأفكار في أماكن غير متوقعة، يعني في غير أوروبة وامتداداتها الحضارية.

ولكن نظرية غارودي اكتسبت أهمية قصوى حيث استخدمت لمناقضة نظرية (صراع الحضارات) التي سادت في التسعينيات من هذا القرن. وكان لسقوط الاتحاد السوفييتي ومنظومة الدول الدائرة في فلكه، ولحرب الخليج الثانية أثر كبير في صياغتها، وانتشارها. وقد تمت صياغتها المثلى على يد أستاذ العلوم السياسية في جامعة هارفرد صمويل هنتنغتون في مقالته (صراع الحضارات) المنشورة عام ١٩٩٣م، ثم في كتابه (صراع الحضارات وإعادة صياغة العالم الجديد) الصادر عام ١٩٩٦م. وقد أخبر في كتابه أن العالم مقبل على انبعاث حضارات يفترض لها أن تصطدم مع الغرب، وتصور في كتابه أن تاريخ العلاقة بين الإسلام والغرب هو تاريخ نزاع وصدام، وقال: «إن البؤرة المركزية للنزاع في المستقبل المباشر ستكون بين الغرب ودول إسلامية».

ولقد أثارت نظرية هنتنغتون عن صراع الحضارات حوارات وردوداً كثيرةً في الشرق والغرب تؤكد أهميتها، وسأقف عند نقد باحث عربي لها هو زكي الميلاد في كتابه (المسألة الحضارية.. كيف نبتكر مستقبلنا في عالم متغير؟) الصادر عام ١٩٩٩م، وذلك لأن

الباحث يقدم لنا نظرية جديدة تستحق الاهتمام والقراءة. وقد سجل الملاحظات التالية على نظرية هنتنغتون: الأولى أن الكاتب ينطلق من فرضية الصدام بين الحضارات، فيوظف خبرته وعلمه لجعل فرضيته حقيقة علمية. والثانية أنه غاب عن النظرية أي تفكير في مجال الحوار بين الحضارات، وكانت دعوته إلى التعايش في آخر كتابه لا تتفق مع نظريته. والثالثة أنه يتجاهل أثر الإسلام في صنع الحضارة الإنسانية، ويدفع الغرب إلى الاصطدام معه. والرابعة أنه يقدِّم في كتابه السياسةَ على الحضارة، فهو كاتب سياسي لا باحث في الحضارة الإنسانية.

ورأى زكي الميلاد أن مقولة حوار الحضارات هي أصلح وأسبق من مقولة صدام الحضارات على مستوى المعرفة والفكر، ولكن الوصول إليها متعذر، ولذلك يقترح مفهوم (تعارف الحضارات) المعبر عن رؤية إسلامية مستوحاة من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٣].

- ٢ -

أشرت فيما سبق إلى كتاب (المسألة الحضارية.. كيف نبتكر مستقبلنا في عالم متغير؟) لمؤلفه الباحث زكي الميلاد، وقد استعرض الباحث مقولتين أثارتا الاهتمام في ميدان الدراسات المستقبلية المتعلقة بالحضارة الإنسانية، وهما مقولة (حوار الحضارات)، ومقولة (صراع الحضارات).

وتبين أن الأولى هي الأصلح على مستوى المعرفة والفكر، ولكن الباحث رأى أنها غير قابلة للتحقيق، فالبيئة العالمية لم تصل إلى مرحلة من النضج تتقبل فيه (حوار الحضارات)، فكيف يدخل الغرب في حوار مع حضارات لا يجد فيها التكافؤ معه؟ وهي حضارات لم تستعد مقوماتها التي تؤهلها للحوار بصورة متكافئة.

ويضاف إلى ذلك أن الاهتمام بالمقولتين السابقتين، ولا سيما الأولى منهما يمثل حالة بالغة التعبير عن عمق الأزمة التي يعيشها الفكر العربي والإسلامي، ويراد بهذه الحالة الانشغال بقضايا لا تكون نابعة من ضرورة اجتماعية، أو إشكالية فكرية، أو مصلحة سياسية، للمجتمعات العربية الإسلامية. أو بقضايا لا تمثل إشكالية لتلك المجتمعات في هذه المرحلة، إذا ما قيست بما يواجهها من تحديات أخرى. والرأي السابق للدكتور طه جابر العلواني، وقد انحاز إليه الباحث زكي الميلاد في سياق رفضه لمقولة (حوار الحضارات)، ورغبته في تقديم مقولة جديدة تنبع من واقعنا العربي والإسلامي، ومن ثقافتنا، وحقائق هويتنا، وقادته قراءته لما سبق إلى اقتراح مقولة جديدة هي (تعارف الحضارات) المعبرة عن رؤية إسلامية، مستوحاة من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾.

وقد وقف الباحث زكي الميلاد عند أجزاء الآية، ورأى أنها

تشكل مرتكزات أساسية لتعارف الحضارات، ومنها أن القرآن الكريم خطاب إلى الناس كافة، وإن الأصل الإنساني واحد ينبغي وعيه من أجل أن ينظر الناس لأنفسهم على أنهم أسرة إنسانية واحدة توجب نبذ العصبيات والأحقاد والاستعلاء.

ومن تلك المرتكزات أن التنوع والتعدد حقيقة موضوعية ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾، فوحدة الأصل لا تلغي التنوع والتعدد، ولكنها توجب التعارف، وعدم التقاطع، والتعارف لذلك هو المهم في مجال العلاقات بين الشعوب، وفي مجال حوار الحضارات؛ فالتعارف يسبق الحوار والتعاون ويمنع التصادم. والحديث عن التعارف يتجاوز الحدود السطحية المتعارف عليها إلى ما هو أعمق؛ من العلاقات والمعارف التي تثمر تعاوناً وتقدماً.

ومن تلك المرتكزات أن التفاضل بين الأمم واقع موضوعي، ولكنه لا يتعارض مع مبدأ العدل والمساواة إذا كانت مقاييسه سامية تربط الأمم والحضارات بالقيم والأخلاق، وأهمها الإيمان بالله سبحانه. وأن العلاقات بين الأمم والشعوب والحضارات ليست مجرد مصالح ومنافع فحسب، بل قيم وآداب وأخلاق عبر عنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾. وإن التقوى التي جعلها الله أساساً للتفاضل بين الحضارات (الأمم والشعوب..) هي الكفيلة بمعالجة الكثير من الأزمات الإنسانية.

وأما الاهتمام بمقولة (تعارف الحضارات) فيرى صاحبها أنه مقيّد بما نقتنع به في العالم العربي والإسلامي من الأفكار التي نقدمها، وبثقتنا بأنفسنا، ويدعو إلى ألا نكون مجرد مسحورين بالأفكار التي تأتي لنا جاهزة من الغرب.

وتأسيساً على ما سبق وضع (الميلاد) تصوراً لمستقبل العرب والمسلمين والطريق إليه، ومنه أن مستقبلنا يجب أن نصنعه بأيدينا لا أن يصنعه الآخرون لنا، وأن نبتكره من داخل حضارتنا وهويتنا وثقافتنا لا من داخل حضارة الآخرين وهويتهم وثقافتهم. ومنه - أيضاً - أن قدرتنا في العالم العربي والإسلامي على دراسة المستقبل تعاني من ضعف وقصور ينبغي تلافيهما بإنشاء مراكز البحوث العلمية المتخصصة، وبتقديم الدعم المالي اللازم لها.

إن مقولة (تعارف الحضارات) جديرة باهتمامنا ومناقشاتنا لإغنائها، وللعمل على ذيوعها وانتشارها، فهي مقولة عربية - إسلامية مؤسسة على أصل رئيس لتكوين هويتنا وثقافتنا ورسالتنا الحضارية للعالم. وفيها خطاب إنساني راق لمعالجة إشكاليات إنسانية تتصل بجوهر الوجود البشري في هذا الكون. ولمعالجة مفاهيم تتصل بنظرة العرب والمسلمين إلى أنفسهم، وبنظرة الآخرين إليهم.

ويلاحظ أن الباحث (الميلاد) لم يقف عند الجهود العربية والإسلامية الرسمية والشعبية والحزبية الداعية إلى الابتكار من داخل حضارتنا وهويتنا وثقافتنا، وهي جهود تبرزها مواقف سياسية،

وتوجهات اقتصادية وعلمية تدلّ على ثقتنا بحضارتنا، وعلى رغبتنا في التعارف.. ودراسة المستقبل (التضامن العربي، التطبيع العربي - العربي، والعربي - الإسلامي، مراكز دراسات استراتيجية..).

وإن القارئ للواقع العربي والإسلامي سيقرّ بوجود من يعمل بجد وعلم لصنع المستقبل (التاريخ) بوعي يقرأ الماضي والحاضر والمستقبل، ويستلهم من قيم حضارتنا المتصفة بالشمول والاستمرارية والانفتاح ما يقدره على التعارف، ويجعله جديراً بالحوار، وبالصدام أيضاً.

التعارف بين الحضارات(*)

محمد عبد الجبار[1]

إن البشرية تدرك الآن - بعد أكثر من سبعة آلاف سنة شهدت المئات من الحروب - أن الحرب ليست التعبير الأفضل عن العلاقة بين حضاراتها المختلفة، وأن التطور العام سيقود إلى صيغة أفضل، تلك هي التعارف وما سيليها. وهذا معنى قول القرآن الكريم﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٨/ ٦١]. فالقتال قد يكون محكوماً بظرفه التاريخي حيث لا تعرف البشرية غيره، لكنها إذا عرفت السلم واختارته، لا يبقى بعدئذ مبرر للقتال، فالسلم هو الأصل والقاعدة التي تقوم عليه العلاقات بين الحضارات المختلفة.

وحين تصمد الحضارات المتقابلة ويصل أبناء كل حضارة إلى القناعة باستحالة إذابة الحضارة المقابلة واستئصالها، فإن هذا يدفع إلى

(*) مقتطف من مقال: مراحل العلاقات بين الحضارات.. مشروع رؤية قرآنية بديلة، صحيفة الحياة، لندن، الأحد ٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٧م، العدد ١٢٧٠٠.

(١) كاتب وباحث من العراق.

فتح الباب أمام تطور العلاقات الحضارية إلى مرحلة التعارف. وهذه المرحلة مذكورة في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ [الحجرات: ٤٩/١٣].

نلاحظ هنا أن الاختلاف بين الناس على أي مستوى كان، خصوصاً المستوى الحضاري، اختلاف يستبطن غاية أو هدفاً وهو التعارف، فكأن القرآن الكريم يقول أن الله خلقنا مختلفين أو جعل فينا القابلية على الاختلاف لكي نتعارف، على أساس أن التعارف يتم بين متخالفين وليس بين متماثلين. وهذه إشارة إلى الوجه الإيجابي للاختلاف، غرضها لفت اهتمام الإنسان إلى توظيف هذا الاختلاف لتحقيق أغراض حضارية هي؛ التعارف أولاً ثم التصديق، وأخيراً التعاون. فليس التدافع إلا مرحلة أولية ذات غاية مرحلية هي مجرد حماية الذات الحضارية، التي سوف يتعين عليها أن تعمل على الانتقال من مرحلة التقوقع على الذات، إلى مرحلة الخروج من شرنقتها والانفتاح على غيرها من الذوات الحضارية والتعرف عليها، بل التعارف (الذي يحمل معنى التبادل والتقابل والتفاعل) معها.

إن التعارف ينفعنا في جانبين: أولاً يساعدنا في فهم ذواتنا أكثر فأكثر، لأن معرفة الآخر تلفت نظرنا إلى ما عندنا وإلى ما ليس عندنا. وهذا يعرفنا بدوره على عناصر قوتنا وعلى عناصر ضعفنا، ومن ثمَّ يساعد في الاستفادة من الجانب الثاني وهو معرفة ما لدى الآخر، من

قوة وضعف. ومن دون هذا التعارف يتعذر علينا الانتقال إلى المراحل الأخرى في العلاقات بين الحضارات.

ويسبب التعارف لا يبقى الآخر مجهولاً، ومن ثمَّ عدواً وعنصراً مسبباً للخوف؛ فنحن نخشى الآخر ما دمنا نجهله، فإذا ما عرفناه لم يعد كذلك، وإذا تحررنا من عقدة الخوف من الآخر أمكننا تقبل وجوده، بل قبول التعايش معه.

لقد أضحى التعارف بين الحضارات في الوقت الحاضر أيسر منه في أي وقت مضى بسبب التقدم الكبير في وسائل الاتصال ونقل المعلومات والمعارف.

تعارف الحضارات(*)

الدكتورة نادية محمود مصطفى[1]

إن التصور الإسلامي لا يكرس الصراع قانوناً تاريخياً مطلقاً كما تقدمه المدرسة الواقعية بروافدها المختلفة، ومنها فكر هنتنغتون الذي لم ينقض استمرار دور الدول - الأمم. ولكن الصراع في التصور الإسلامي بمعنى التدافع ليس إلا سنّة واحدة من سنن الاجتماع البشري إلى جانب سنن الله الأخرى، كما أن له منطقه المختلف عن مفاهيم الصراع الأخرى.

ولذا فإن الجهاد في معناه الواسع ليس صراعاً مع الآخر للقضاء عليه، ولكنه أداة الدعوة ونشرها نحو هذا الآخر، ومن ثم فهو أحد أدواته، حيث أداة التعاون السلمي تظهر إلى جانبه، ولكل من

(*) مقتطف من ورقة بحث (حوار الحضارات في ضوء العلاقات الدولية الراهنة) والمقدمة لندوة: كيف ندخل سنة حوار الحضارات، عقدت في دمشق، في الفترة ما بين ٢٢-٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٠٠م.

(١) أستاذة العلاقات الدولية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، والمشرفة على برنامج حوار الحضارات في جامعة القاهرة.

الأداتين ضوابطها وشروطها، وليست إحداهما بديلة مطلقة للأخرى. ولذا فإن القول أن أصل العلاقة بين المسلمين وغيرهم في التصور الإسلامي هو الحرب أو السلام، ليس قولاً منضبطاً، ولكن القول الأفضل هو: متى تكون الحرب؟ ومتى يكون السلام؟ هكذا يجب أن نقرأ المدارس والاتجاهات الفقهية المختلفة حول هذا الموضوع، بحثاً عن إجابة لهذا السؤال الأخير، وهو السؤال الذي يحتل في التصور الإسلامي مكانة السؤال في المنظور الغربي حول الصراع كمحرك بين من وعلى ماذا؟.

ومن ناحية أخرى، فإن هذا الصراع - في صورته العسكرية أو السلمية - ليس لتأكيد هيمنة قوم على قوم، أو ثقافة على ثقافة، لكن لتحقيق أهداف الدعوة والرسالة باعتبارها رسالة للعالمين، ليس بالإكراه والقسر والإجبار للشعوب والأمم. وعلى العكس فإن منطق صدام الحضارات في فكر هنتنغتون يعكس كل منطق التناقض بين عالمية الإسلام وبين هيمنة الحضارة الغربية، أو عولمة النموذج الحضاري الغربي، حيث أنه - أي فكر هنتنغتون - يعكس تكريساً لهذه الهيمنة وكيفية استمرار قوتها بأساليب إكراهية قسرية إجبارية أفاض في تحديدها في نهاية مقالته.

إذن لماذا لا نقول أن مفهومنا من الدائرة الإسلامية عن نمط العلاقة بين الحضارات هو (تعارف الحضارات)، وأنا هنا أستخدم ذلك المصطلح الذي قدمه بعض الأساتذة المفكرين مثل الأستاذ زكي

الميلاد[١] وكذلك بعض الأساتذة الأكاديميين مثل الأستاذ سيف الدين عبد الفتاح[٢].

وإذا كان لا بد أن نسجل أن المفهوم الإسلامي عن حوار الحضارات ينبني على رؤية الأصول (قرآناً وسنة) ويعكس الأسس المعرفية للرؤية الإسلامية، ومن ثم يختلف في جوهره عن المفهوم الغربي عن الحوار - الثقافي أو الحضاري، كما لا بد وأنه يختلف في غاياته ودوافعه، إلا أن استخدام هذا المصطلح (الحوار) من داخل الدائرة الإسلامية وفي ظلال العولمة إنما يضعنا في نطاق الدائرة الاعتذارية الدفاعية عن الإسلام والمسلمين، في حين أن مفهوم التعارف هو في إطار طبيعة حضارته وعالميتها والسنن التي تحكم العلاقة بينها وبين غيرها من الحضارات، سواء في مرحلة شهود هذه الحضارة الإسلامية أم أفولها وضعفها، لأنها السنن التي لا تقوم على إبراز أثر العوامل المادية فقط ولكن العوامل غير المادية من قيم وأخلاق.

ومن ثم فإن استخدام (تعارف الحضارات) وليس حوارها أو صراعها يمثل استجابة إيجابية، وليس مجرد رد فعل لما أثارته

(١) انظر محاولة بناء هذا المفهوم في: زكي الميلاد. تعارف الحضارات، الكلمة، العدد ١٦، السنة الرابعة، صيف ١٩٩٧م/١٤١٨هـ، ص١٩-٣٠.

(٢) د. سيف الدين عبد الفتاح. حول تعارف الحضارات، ورقة مقدمة إلى ندوة الإسلام والعولمة، كلية دار العلوم مكتبة القاهرة، أيار (مايو) ٢٠٠٠م.

أطروحات (صراع الحضارات) تلك الأطروحات التي جاءت من خارج الدائرة الإسلامية تعبيراً عن الاهتمامات الفكرية والعملية في الغرب، في حين أن الرؤية الإسلامية على مستوى المعرفة والفكر أسبق إلى تقديم طرح آخر، كما أن الواقع الإسلامي في ظل موقعه من توازنات القوى العالمية، لا بد وأن يطرح السؤال التالي: هل يمكن للغرب أن يدخل في حوار حضاري مع حضارات غير متكافئة معه من الناحية المادية، وهو المحكوم دائماً باعتبارات توازن القوى المادية؟ حتى أن هنتنغتون حين يذكر الحضارات والأديان لا يقدمها إلا في إطار الصراع، والذي يعكس كل دلالات هيمنة الغرب المادية كذلك.

وإذا كانت أوروبة في توجهها المتوسطي قد طرحت الدعوة لحوار ثقافات، إلا أنه ليس هناك من الأدلة في واقع السياسات الأوروبية والغربية الرسمية بصفة عامة على أن حوار الثقافات هو الأساس في تشكيل رؤية هذا الجزء من الغرب للعالم، ولا أدل على ذلك من مضمون الحوار حول قضايا المرأة والطفل والأسرة والبيئة والأقليات ومحتواه، وذلك في المحافل الدولية الرسمية المعنية بتقنين قواعد إدارة هذه المجالات في عصر العولمة.

تعارف الحضارات

في ضوء متغيرات العالم الجديدة

الدكتور رسول محمد رسول[1]

في العقد الأخير من القرن الماضي أخذ مفهوم تعارف الحضارات ينضج في مدلولاته التاريخية والفكرية بل والفلسفية، ويحث خُطاه المعرفية في دوائرنا الدينية والثقافية والفكريّة. ومثلما جاء المفهوم بوصفه تعبيراً عن حاجة موضوعية حيث تمَّ صكّه عَقِبَ ظهور مفهومات من مثل صدام الحضارات ونهاية التاريخ، كذلك جاء نتيجة لضرورة جهويّة من حيث بناء دلالته، وتأصيل مرجعيته في التراث الإسلامي والعربي، فعلى سبيل المثال تناول المفكر الإسلامي زكي الميلاد المفهوم في إطار المرجعية القرآنية، ونسجَ فضاءه المعرفي على نحو علائقي يَمتُّ بعلاقة جوهريّة إلى حركة التاريخ وصيرورة بناء الفكر المُحايث لحركة الواقع الجديد الذي أفرز نظريات عدة في فكر المثاقفة[2] خلال العقد الأخير من القرن العشرين.

---

(١) كاتب وباحث من العراق.

(٢) بشأن هذا المفهوم انظر كتابنا: (الغرب والإسلام - قراءات في رؤى ما بعد الاستشراق)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

لقد وجد الميلاد أن التعارف الحضاري هو الطريق الثالث[1] بين التصادم الحضاري ونهاية التاريخ، بين رؤية هنتنغتون ورؤية فوكوياما، وكلاهما صدح بنظريته في العقد الأخير من القرن الماضي، وكلاهما صار مدار حديث كوني، مدار بحث وشرح ونقد وتقبُّل ورفض، لكنهما، رغم ذلك، فتحا الحوار على مصراعيه بشأن بيان راهن العلاقة ومستقبلها بين الذات والآخر، بين الأنا والغير، بين (هُم) و(نحن)، لقد تفاقمت أسئلة البينية على نحو واسع، وخلقت أجواء جديدة في فضاء الحوار الثقافي والفكري بين المفكرين الحواضر الثقافية والحضارية الراهنة في العالم، واللافت في الأمر أن للمسلمين طريقهم في كل ذلك سواء عبر الدخول إلى عالم الرؤيتين الغربيتين في سجال تارة، ونقاش منتج تارة أخرى، أو من خلال تأصيل الإشكالية برمتها في الوعي الإسلامي بحثاً عن مرجعية إسلامية وهو ما توصّل إليه عدد غير قليل من مفكرينا العرب والمسلمين في بلورة رؤية ثالثة أو طريق ثالث يبدو أكثر عقلانية وأكثر نأياً عن التطرّف في بناء النظرية، إنه طريق التعارف الحضاري.

إلا أن كل هذه الجهود الفكريّة التي قطعت على القلق المعرفي- بشأن نظرية التعارف - طريق الشك في قدرة الثقافة الإسلامية على

---

(١) انظر: زكي الميلاد: (المسألة الحضارية - كيف نبتكر مستقبلنا في عالم متغير)، الفصل الرابع، ص ٥٥ وما بعدها، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

مواجهة الواقع، تواجه اليوم تحديات عدة تمليها ظرفية المرحلة، وصيرورة الأحداث، وتحولات الرؤى في الحواضر الثقافية والدينية والسياسية المعاصرة الأكثر تأثيراً في صناعة الحدث التاريخي. بمعنى أن التعارف الحضاري الذي حدّد المفكرون العرب والمسلمون دلالته ومنطق تداوله، بات اليوم أكثر عُرضة من ذي قبل إلى التساؤل والمراجعة، وإلى إعادة بناء مدلولاته في ضوء متغيرات الواقع الجديدة التي بدت تأثيراتها أكثر محايثة في منظوماتنا المعرفية وإمكانياتنا المادية، كحاضرنا المعرفي ومستقبلنا الثقافي والحضاري، بل والسياسي والاقتصادي والاجتماعي. فما هي هذه التحديات؟

اختلال وتدهور

لقد كان لحادث الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) أثره الكبير في النظرة المتبادلة بين الغرب والشرق، خصوصاً بين الغرب الأمريكي والشرق العربي والإسلامي، ففيه، ومن خلاله، وعبره، وصلت نظرة الإسلامويين المتشددين (السلفيين) إلى ذروة عدائها للولايات المتحدة مطلع الألفية الثالثة، هكذا يعتقد الأمريكيون، وهو الاعتقاد الذي يُعدُّ مقدمة تبريريّة سوّغت للغرب الأمريكي أن يعبّر عن ردّ الفعل الإسلاموي المتطرّف بفعلٍ هو الآخر لا يخلو من تطرّف واستنفار استفزازي نجحت إدارة الرئيس بوش بتسويقه في المجتمع الدولي والعربي والإسلامي سواء بسواء. لقد عبر رد الفعل هذا عن نفسه في الحرب على الإرهاب أو (الحملة الدولية على الإرهاب)، وإذا كان الفعل الإسلاموي قد اتخذ طابعاً متعولماً من حيث الوسائلية

والغاية، فإنّ الطابع المتعولم للحملة الأمريكية على الإرهاب هو الآخر كان واقعاً جارياً، وربما ليس مهماً توصيف ما كان عليه الفعل وردّ الفعل بقدر ما يهمنا ما هو أهم، أي ما نتج عن صورتي التطرّف والتطرّف المضاد أو المضاعف. فبقدر ما ساءت صورة المسلمين في الغرب الأمريكي، ساءت أيضاً صورة الغرب الأمريكي في الشرق الإسلامي، خصوصاً العربي منه. لقد أدّت الحملة الدولية على الإرهاب إلى اختراق أمريكي لبنية الإسلاموية السلفية في الشرق الأوسط؛ لمعاقلها، لمؤسساتها التمويلية والثقافية، ومنابرها الإعلامية، وقاعدتها البشرية، وقد تجد هذه الاستراتيجية مبرّرها من جهة الغرب كما قلتُ آنفاً، وتجد تشجيعاً من أوساط وشرائح تنويريّة وتعارفيّة كبيرة في المجتمع العربي والإسلامي، لكنها، في الوقت ذاته، تركت انطباعات سلبية لدى شرائح غير نخبويّة (العامة) في مجتمعاتنا. كان منها أنها ضخمّت صورة العداء للغرب، ليس الأمريكي فحسب بل كل الغرب، ما يعني اختلال قيمة التعارف الثقافي أو الحضاري لدى العامة من الناس، ناهيك عن بعض الخاصة أو النخب غير التعارفية[١]. ويعني أيضاً تدهور الثقة بمنطق التعارف ذاته في ردم الفجوات بين الأمم والشعوب. هذا الذي بذل أهل الفلسفة التعارفيّة العرب والمسلمون، فضلاً عن الغربيين، جهداً استثنائياً خلال العقد الأخير من القرن الماضي لبلورة رؤيته ومقولاته

(١) المقصود هنا: الشرائح الاجتماعية التي لا تؤمن بالتعارف الحضاري أو الثقافي.

ومدلولاته التداولية، وكل ذلك يُعدُّ اليوم واحداً من التحديات المصيرية التي تواجه التعارف الحضاري.

نِدّية وتصادم

من جهة أخرى، أفضت أحداث الحادي عشر.. إلى ولادة استراتيجيات سلبية مزدوجة. فالتطلّع الشمولي الأمريكي أو ما بات يُعرف بـ(الإمبراطوري) أخذ يجتاح الآفاق السياسية والفكرية في العالم بعد أن تبلورت رؤاه ونظرياته، ومنها نظرية (الحرب الاستباقية)، ونظرية (محور الشر)، كذلك أخذ التطلّع الأصولوي المتطرّف يشق مدياته في الشرق الأوسط والآفاق الإسلامية بل وفي الغرب أيضاً، ما يؤشّر أن سياقاً من النديّة والتصادم الثنائي باتَ في واجهة الفضاء التعارفي، وأصبح في مقدمة الوعي اليومي لدى الناس، ويمارسُ سلطة حجبٍ وتعويقٍ واستنفار للنزعة العدائية المتبادلة بين الذات والآخر. بمعنى أن النزعة السلبية المزدوجة التي ولدت جرّاء أحداث عام ٢٠٠١م أصبحت مُفعّلة وذات سياق عملي وتداولي تطال الحياة اليومية بالبلدان العربية والإسلامية.

إن وجوه النديّة والتصادم تبدو جلية، فلقد أدّت الحملة الدولية على الإرهاب إلى ملاحقة - لم يشهد لها تاريخ - لفلول الإسلاموية السلفية المنتشرة في العالم. ورافق هذه الملاحقة مطالب أمريكية بتغيير أيديولوجيا الخطاب التعليمي في البلدان الإسلامية، وقد تكون هذه المطالب واقعية وضرورية بسبب استشراء القيم الطائفية والجهويّة في

مناهج التعليم لدى عدد من الدول العربية والإسلامية، إلا أنّ هذه المطالب تبقى فاعلاً سلبياً من وجهة نظر الفرد العربي أو المسلم أو المرجعيّات الدينية؛ لأنها لا تُفهم إلا بوصفها تدخُّلاً سافراً في شؤون الغير. وفي مقابل ذلك؛ بل ولهذا السبب، فاقمت الإسلاموية المتطرّفة نديتها، وأكدت تصادُميتها تجاه الغرب الأمريكي، وأعلنت إصرارها على مواصلة فعل المقارعة، وما تأكيدها على جعل العراق الجديد مسرحاً لأعمال عنفها سوى صورة من صور هذا الإصرار.

إن هذه الجدلية، جدلية التصادم وتأكيد النزعة النديّة من جهة الإسلاموية المتطرفة، ومن جهة الغرب الإمبراطوري الجديد، هي إحدى تحديات التعارف الحضاري، إنها عائق حيوي؛ فكم نحتاج من الوعي والجهد والعمل والتفكير وإعمال الإرادة الحرة لتقويضه وإذلاله حتى نعود بالرغبة إلى التعارف نحو سياقها السليم؟.

ذئاب ولا حمامة!

إنّ الخطر الأكبر على (التعارف الحضاري) لم يعُد يرتبط بمجرّد أحداث كانت سبباً له، إنما بأفكار تولّدت عنه وصارت فيما بعد، استراتيجية فلسفية تحث الخطا مطواعة إلى مفاقمته. فعلى الصعيد الفلسفي أخذت أفكار السلام الكانطية - نسبة إلى فيلسوف التنوير العقلاني إيمانويل كانط - تتدهور، وطرحت متغيرات العالم المعاصر فلسفة سلفه الذي تقاطع معه جذرياً، أي إن العالم المعاصر، ووفق الفلسفة الخاصة بالمحافظين الجُدد، يعود أدراجه إلى فلسفة توماس

هوبز الذي عدَّ الإنسان ذئباً لأخيه الإنسان. هكذا هو الحال الراهن، نرى مفاعيله جلية فيما تفعله السياسة الشارونية بالفلسطينيين منذ انتفاضتهم مطلع الألفية الجديدة؛ إنها ذئبية اليمين اليهودي المتعجرف التي دمرّت التطلّع إلى السلام بالمنطقة، بعد أن دمرّت مشروعات السلام ذاتها، حتى وصل الأمر إلى الشروع باغتيال ياسر عرفات بعد اغتيالات عدة - بعضها نجح - لرموز المقاومة الفلسطينية الوطنية. ولن يختلف الأمر بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية التي تريد من دول العالم الالتزام بالقوانين والشرائع الدولية بينما هي لا تلتزم بها، وهي بذلك إنما تكرّس النزعة الذئبية في العلاقات الدولية، وفرض السياسات المتطرّفة. وهذه الصورة الفاجعة لها معادلها الموضوعي في الشرق الإسلامي، فالأصولوية المقيتة التي تتحدى العالم بطروحاتها العدائية ضد الأمن والسلام والتنمية والتقدم الاجتماعي، هي الأخرى تكرّس خطاباً ذئبويّا تصرِّفه بما يشبه الضّحك على ذقن الفراغ الذي يثوي في وعي أجيال عدّة من المسلمين في الشرق الإسلامي، ويعيث بمفاصله إفساداً عندما يحوّل خطاب هذه الأصولوية (الوعي البشري) إلى قدرة تسليمية فارغة من التساؤل، بشأن مصير ماسيؤول إليه حال الأمة والمجتمع إذا ما صكّ التطرُّف والعداء للآخر نهجه بوصفه استراتيجية لا غيرها استراتيجية في الحِراك السياسي والتديني فضلاً عن الثقافي والحضاري في المجتمع.

إنها جُملة تحديات واقعية، وغيرها الكثير، تلك التي تقف اليوم في وجه التعارف الحضاري، فكم نحن - والعالم أيضاً - بحاجة إلى إعادة

تأسيس هذا المفهوم عملياً من أجل بعث التوازن مقابل الاختلال والتدهور، وبعث الحوار والتجاور مقابل النديّة والتصادم، وإطلاق حمامات السلام مقابل عودة الذئاب إلى الحاضرة البشرية المعاصرة.

تعارف الحضارات(*)

الدكتور أحمد البغدادي(1)

في كتابه الممتع (المسألة الحضارية)، يطرح الأستاذ زكي الميلاد مصطلحاً جديداً انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣/٤٩] ويرى الأستاذ زكي أن هذا التعارف أمر ضروري يجب تحقيقه قبل مسألة حوار الحضارات التي يدعو إليها المفكر المسلم روجيه غارودي، وكذلك الكثير من الأوروبيين والمسلمين رداً على مقولة صمويل هنتنغتون حول صدام الحضارات، وهي المقولة التي انتشرت خاصة بعد أحداث الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) وتدمير تنظيم القاعدة في حرب أفغانستان التي قامت بها الولايات المتحدة.

في تفسيره لهذه الآية القرآنية يقول القرطبي صاحب تفسير (الجامع لأحكام القرآن) - الجزء ١٦، ص ٣٤٣ - ٣٤٤ ما نصه: «الشعوب رؤوس القبائل، مثل ربيعة ومضر والأوس والخزرج، واحدها شَعْب

(*) نشرت هذه المقالة في صحيفة الاتحاد الإماراتية، بتاريخ ٢٠٠٢/٣/٥م.

(1) أستاذ العلوم السياسية بجامعة الكويت.

بفتح الشين، سُمّوا به لتشعبهم واجتماعهم كشعب أغصان الشجر... وقيل إن الشعوب عرب اليمن من قحطان، والقبائل من ربيعة ومضر، وقيل بطون العجم، والقبائل بطون العرب. وقال ابن عباس في رواية: إن الشعوب المَوَالي، والقبائل العرب، وقال الماوردي: ويحتمل أن الشعوب هم المضافون إلى النواحي والشعاب، والقبائل هم المشتركون في الأنساب. قال الشاعر:

وتفرقوا شُعَباً فكل جزيرة فيها أمير المؤمنين ومنبر»

ومن العجيب أن القرطبي لا يورد ذكراً للتعارف بين هذه الشعوب والقبائل كما ورد في القرآن. لكن من يتصفح القرآن يجد أن هذه الآية قد جاءت بعد ذكر آيات تتصل بحال من التنافر والقتال بين الأوس والخزرج من قبائل المدينة الكبيرة، وترتيب القرآن الكريم لكيفية تنظيم العلاقة بين المسلمين إذا وقع بينهم قتال. بمعنى أنْ لا حديث عن التعارف إلا في السياق العام، لكن يمكن القول أن الآية لا علاقة لها بالحضارات، وإن كان ذلك لا يقلل من التوجه الإيجابي الذي طرحه الأستاذ زكي الميلاد كمدخل لضرورة تعارف الحضارات على بعضها بعضاً.

وها نحن نرى إقبال الأمريكيين والأوروبيين على الحصول على المصاحف والكتب الإسلامية لمزيد من التعرف على الإسلام الذي - في اعتقادهم - قد دفع أتباعه إلى فعل ما فعلوه في أميركا، وكيف يمكن لهم أن يتعاملوا مع الشعوب الإسلامية التي وجد أن كثيراً منها

يؤيد أسامة بن لادن فيما فعل، محاولين الوصول إلى فهم أكبر لوضع هذه الشعوب وعقليتها التي تتضمن العديد من القبائل.

وللأسف أن هذا السعي لم يقابله سعي مماثل لدى الشعوب العربية والإسلامية للتعرف على العقلية الأوروبية والأمريكية، وكيفية تعاملها مع الحياة والشؤون الدولية، لذلك نحن في حاجة إلى إقامة علم الاستغراب في مقابل الاستشراق، فالتعارف إلى الآن لم يتم سوى من طرف واحد، هو الغرب، في حين أننا شعوباً في حاجة فعلاً إلى أن نتعرف على الغرب قبل أن نتحدث عن الحوار بين الحضارات، وإن كانت مقولة صِدام الحضارات قد فرضت نفسها إلى حين.

من أجل تكريس مفهوم تعارف الحضارات(*)

الدكتور حسن عزوزي(١)

يعتبر عنصر التلاقي والتفاهم بين الحضارات والثقافات أمراً طبيعياً في مسيرة الفكر الحضاري الإنساني. ويشكل التفاهم والتعايش أبرز المبادئ التي تحكمت في التقاء الحضارات وتلاقحها عبر التاريخ، وإذا حدث أن كانت هناك صدامات بين الحضارات، فإنما كان ذلك أمراً شاذاً يرجع إلى اعتبارات مصلحية أملتها ظروف شخصية أو قومية أو إثنية، أثرت بشكل سلبي على مبدأ التعارف الإنساني بين الشعوب والحضارات.

إن على أبناء الحضارات والثقافات أن يتعاملوا فيما بينهم على أساس الانتماء إلى أسرة إنسانية مشتركة، تتفاعل في إطارها مختلف الروابط الحضارية بين الأمم والشعوب، وهذا الأمر كفيل بنزع فتيل الأحقاد والكراهيات والعصبيات التي طالما أنهكت الإنسانية برمتها، بفعل الحروب المدمرة، والصراعات المنهكة، التي أثرت بشكل كبير

(*) الوعي الإسلامي، الكويت، العدد ٤٠٦، جمادى الآخرة ١٤٢٠هـ، أيلول (سبتمبر) - تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٩م.

(١) رئيس تحرير مجلة كلية الشريعة بفاس - المغرب.

على مستوى التقارب بين الحضارات والشعوب حتى أمست متنافرة متباعدة.

فالتعارف بوصفه مبدأ إنسانياً حضارياً سامياً له أكبر الدور في منع النزاعات والصراعات، فهو يقرّب الأفكار والمسافات، وينسج أواصر التعاون والتفاهم، ويهدف إلى بناء أسس حوار حضاري مثمر وبنّاء، إنه المبدأ الذي دعا القرآن الكريم إليه بشكل صريح في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ٤٩/١٣].

إن المبدأ القرآني في الدعوة إلى التعارف بين الشعوب والحضارات، يهدف إلى تجاوز المصالح النفعية المحكومة بالأبعاد والميكانيزمات السياسية والاقتصادية، ويرمي أيضاً إلى استبعاد المعايير القومية الضيقة في التفاضل بالأعراق والأنساب واللغات وإقصائها، لكن بالمقابل لابد من اعتبار الأسس الاجتماعية والأخلاقية القائمة على منظومة القيم والآداب لأنها الوحيدة الكفيلة باستمرار أواصر التقارب والتفاهم ووشائجها وتقويتها، ثم التعارف، فهي قواعد في التفكير والسلوك يحكمها الضمير الإنساني السليم، ويتفق على نظامها العام كل من كان سوياً رشيداً.

لقد راجت مصطلحات (حوار الحضارات) و(لقاء الحضارات) و(وحدة الحضارات) بشكل كبير في العقود الأخيرة، لكنها جميعاً من

إنضاج الفكر الغربي الذي يفرض كل مرة وحين من الأفكار والشعارات ما يناسب وضعه الاستراتيجي والأيديولوجي في إطار الحضارة الغربية التي تجد نفسها دوماً في تنافس وعداوة مع حضارات أخرى؛ شرقية بالخصوص، وإسلامية على وجه أخص.

من هنا كان المصطلح القرآني القاضي بضرورة التعارف بين الشعوب والقبائل، ومن ثمَّ بين الحضارات والثقافات، والذي يهدف إلى غايات أنبل، ومقاصد أوسع، ذلك أنه إن لم يكن هناك تعارف، فلن يكون هناك حوار ولا تفاهم، فالتعارف ينجم عنه دوماً حوار هادئ وتعاون دائم. أما الحوار الذي يباشر بشكل مفاجئ فلا يعني بالضرورة حصول تعارف بين الأطراف، فكم من لقاءات حوارية أجريت إن على المستوى السياسي أو الديني لكنها جاءت بالفشل. لأن جميع أطرافها الذين أخذوا مكانهم حول مائدة الحوار لم ينسجوا أواصر التعارف والتواصل من قبل، فلبث كل طرف جاهلاً للطرف الآخر.

إن للتعارف دوراً كبيراً في الحيلولة دون وقوع النزاع أو الصدام بين الحضارات، وهو يكفل نسبة كبيرة من نجاح لقاءات التفاهم والنقاش والتواصل، لأنه يرمي إلى تأصيل مفهوم الأسرة الإنسانية الواحدة ذات الأصل الإنساني الواحد، وهو مفهوم رمت إليه الآية القرآنية عندما دعت الناس جميعاً إلى التأمل في الأصل الإنساني الذي هو من ذكر وأنثى، وإلى التفكير في دعم أسس التعارف والتفاهم بين مختلف الشعوب والحضارات في إطار الجماعة الإنسانية الواحدة التي

قد تختلف مشاربها الدينية والإثنية والحضارية، لكنها تتعامل فيما بينها بمنطق الأسرة الواحدة ذات الأصل الواحد.

وإذا كانت الدعوة إلى حوار الحضارات، التي تعتبر من الخصائص المميزة للعقود الأخيرة من هذا القرن، لم تؤت أكلها الكامل، ولم تنجم عنها نتائج ملموسة وواقعية على كافة المستويات، فإنما ذلك راجع بالأساس إلى عدم اكتشاف خصائص الحضارات الأخرى ومميزاتها وقيمها، وخاصة من جانب الحضارة الغربية التي ما فتئت تضمر العداوةَ وحبَّ السيطرة والتنافسَ تجاه الحضارات الأخرى، غير مكترثة بما تكتنزه تلك الحضارات من قيم ومُثل وعناصر القوة والاستمرارية. ولعل هذا ما يجعل الغربي يروج في الآونة الأخيرة لمقولة (صدام الحضارات) لأنه أكثر توجساً وتخوفاً من شبح التصادم الذي يدفع به إلى الإحساس ببعض المخاوف، وهو يستشعر تقدم وصعود بعض الحضارات وخاصة منها الحضارة الإسلامية، التي أخذت تقلق راحة الساسة الغربيين وتقض مضاجعهم بعدما أمست تشكل قوة حضارية كبيرة، ما فتئت تتغلغل داخل الكيان الغربي؛ جغرافياً ودينياً وثقافياً.

لذا وجب التأكيد مرة أخرى على أن أهم سبب جعل الحضارة الغربية تعادي وتناوئ الإسلام وحضارته، هو جهل أبناء تلك الحضارة بمقومات الإسلام الحضارية ومثله العليا وروحه السمحة ودعوته السليمة.

إن الغرب لمّا يتعرف بعدُ على حقيقة الحضارة والديانة الإسلامية فهو يجهل عنهما كل شيء، ولا تنطبع في مخيّلته سوى مدلولات سلبية موغلة في التحامل والقدح والكراهية. فالإسلام في نظر الغرب متخلف يدعو إلى العنف، غير متفتح، ولا يستطيع مواكبة التطورات والمستجدات الحديثة. وهو من ثمَّ غير جدير بإدراجه في المنظومة الحضارية الإنسانية العالمية، وهكذا قلما نجد في صفوف الغربيين عقلاء ومنصفين يعون جيداً حقيقة الحضارة الإسلامية ورسالة الإسلام العالمية المنفتحة على كل الثقافات والشعوب، والداعية إلى السلم والسلام، والأمن والأمان. وتبقى أصوات هؤلاء المنصفين خافتة لا تتجاوز آفاقاً معينة ومحدودة لتترك المجال أمام أبواق الآلة الإعلامية الغربية الرهيبة تقدح في الإسلام وحضارته، وترميه بأبشع الصفات والنعوت، وتقذفه بشتى الإسقاطات والمصطلحات القدحية.

إن الغرب لم يُتح لنفسه الفرصة الكاملة للتعرف على الإسلام ديناً وحضارةً، والتعارف مع المسلمين شعوباً وقبائل وثقافات، وذلك لكي يعي حقيقة هذا الدين وبعده التام عن نية إدخال العالم في أي صراع أو صدام، كما يحلو لكثير من المحللين السياسيين الغربيين الترويج له.

إننا نستغرب حرص الغرب والدوائر الكنسية على عقد لقاءات الحوار والنقاش بين المسلمين والنصارى دون سابق وعي من الطرف

الآخر بمدى تمثله لحقيقة الدين الإسلامي وحضارته، وهذا ما يجعل عقلاءهم - في لقاءات حوارية متعددة - يعترفون في كثير من الأحيان، عندما تتبين لهم حقائق الأمور بأنهم يجهلون الشيء الكثير عن حضارة الإسلام وقيمه، مما يستلزمهم التعرف أكثر على مبادئ الإسلام الصحيحة، وتعاليمه الروحية وحضارته الإنسانية القيمة.

إن الغربيين باتوا يجهلون عن الإسلام أبسط مبادئه وأدنى مرتكزاته الحضارية، من هنا جاءت ضرورة تعرف الطرف الآخر على منظومة الإسلام وحضارته في أزهى صورها وأنصعها، وذلك قصد تمهيد السبيل للحوار والتلاقي والتفاهم، فالتعارف أساس وشرط كل مبادرة للحوار؛ إذ من مستلزمات نجاح ملتقيات الحوار وشرائطه التعارف مسبقاً، واطلاع كل طرف على ما تختزنه حضارة الآخر في كل أبعادها الدينية والثقافية والفكرية، قصد استيعابها وتمثلها جيداً من أجل الاتفاق على مواطن التلاقي ونقاطه، ومن ثمَّ مناقشة مواطن الاختلاف ونقاطه وتداولها.

من جهة أخرى، يظهر لنا من خلال صورة الإسلام المشوّهة والكاريكاتورية التي يعمل الغرب على تمييعها ونشرها عبر مختلف وسائل الإعلام، سوء الفهم العميق لمعالم الدين الإسلامي وحضارته، وقلة المعرفة بحقائقه ومبادئه، وإن كنا لا ننكر أن الغرب ينهج في ذلك أحياناً منهج تعمد سوء الفهم وتبييت سوء النية.

إن دعوة الإسلام إلى التعارف والتواصل والانفتاح على الثقافات

والحضارات الأخرى ومد الجسور معها، يهدف إلى إزالة كل الأحقاد والعصبيات ومحو كل أشكال العنصرية والكراهية ونزع بذور النزاعات والصراعات، مما يكفل فتح المجال الواسع للتفاهم والتحاور، خاصة أن القرن المقبل - الذي سيكون لا محالة عصر ثورة المعلومات، والتقدم المذهل في وسائل الاتصال - سوف يجعل العالم قرية كونية صغيرة، من المفترض أن يتعارف سكانها ويفتحوا نوافذ التفاهم والتقارب.

وإذا كان الجميع ينساق بوعي ومن دون وعي وراء مصطلحات الحوار والتفاهم في ثوبها الغربي، فإن مضامينها ومدلولاتها وأبعادها، وكذا ما ترمي إليه وفق ما يهدف إليه منظروها الغربيون، يكاد ينطلي على كثير من فئات الناس، فتجد أن حوار الحضارات لا يكاد يفهم إلا حسب المفهوم الغربي، وعلى أساس شروط الاستراتيجيين الغربيين أيضاً، فهم الذين يدعون إلى إقامة نوع الحوار المنشود وهم الذين يشترطون شرائطه ويضعون أسسه وأهدافه. ولعلّ هذا ما جعل قضية (حوار الحضارات) وفق المنظور الغربي تتطور وتساهم في تكوين إحدى دعائم نظام العولمة ومقوماته، الذي وإن كان يبدو لنا يرمي إلى ترسيخ مرتكزات الهيمنة الغربية على الشعوب الأخرى، فإن بريقه الخادع يوهمنا بوجود نوع من التعاون والانفتاح والتقارب والحوار بين الشعوب والحضارات، خاصة إذا علمنا أن المفهوم الساذج للعولمة - والذي يُروج له بشكل شائع -

يعني تقريب الشقة بين أبناء الدنيا، وإزالة الحواجز والحدود أمام العلاقات والروابط السياسية والاقتصادية والثقافية على أساس من التعاون والحوار.

إننا من ثم نكاد نجزم بأن مصطلح (الحوار بين الحضارات) يكاد يفرغ من مضمونه ومحتواه الصحيح، لأنه لا يقوم في أغلب الأحيان على أساس من التعارف المسبق الكفيل بانفتاح كل طرف على الآخر، كما لا يقوم أيضاً على أساس من (احترام الخصوصيات الدينية والثقافية)، لكل الحضارات والشعوب، وذلك باستبعاد أي محاولة هيمنة، فكرية كانت أو اقتصادية، من أي جهة تريد فرض قطبية أحادية الجانب، تسعى من خلالها إلى استغلال عولمة كاسحة واحتكارها، إنه - باحترام هذه الشروط - يمكن فتح نوافذ التعارف بهدف تقريب الشقة بين مختلف الحضارات، وجعلها ينفتح بعضها على بعض في سعي حثيث نحو تلاقح متميز، وتفاهم مفيد ومثاقفة مجدية وفعالة. كل ذلك مع الاعتراف بوجود مساحات الاختلاف بين جميع الحضارات والأديان، وتمتع كل وحدة بخصوصياتها ومميزاتها مما لا يسمح بأدنى محاولات التذويب أو الانصهار. وهنا نود التنبيه إلى أن مفهوم (تعارف الحضارات)، كما نرمي إليه، لا يسمح بأدنى محاولات الاختراق الدينية، ولا يهدف بتاتاً إلى التقاء الديانات السماوية، تبعاً لالتقاء الحضارات، كما تدعو إلى ذلك بعض التيارات الفكرية والدينية، التي تسعى إلى صهر مقومات الديانات

السماوية الثلاث وإذابتها في بوتقة واحدة وضمن قالب واحد، يحلو لزمرة منهم إرجاعه إلى ميراث إبراهيمي واحد.

ختاماً: نرى أنه لا قيمة للحديث عن حوار الحضارات والأديان، إذا لم يسعَ أتباع كل حضارة أو دين إلى التعرف أكثر على الحضارات الأخرى، وفهم مكوناتها، واستيعاب قيمها ومُثلها، قصدَ تصحيح المفاهيم الخاطئة والمغلوطة، التي تكون قد تكونت بفعل ظروف وعوامل تاريخية وأيديولوجية معينة. ومن هنا نرى أن من أكبر أسباب عدم نجاح كثير من لقاءات الحوار التي تعقد بين الفينة والأخرى بين الجانب الإسلامي والجانب النصراني، كون هذا الأخير لم يستطع حتى الآن تمثل قيمة الإسلام الحضارية، وسمو مبادئه وتعاليمه الروحية، التي تدعو إلى قيم السلم والأمن والسلام والتسامح مع الذات ومع الآخر.

تعارف الحضارات(*)

زكي الميلاد

لقد حوّل يورغن هابرماس المفكر الألماني المعاصر، والذي ينتمي إلى الجيل الثاني لمدرسة فرانكفورت النقدية، مفهوم التواصل إلى فلسفة أطلق عليها الفاعلية التواصلية. وقد عُرف هابرماس بهذه الفلسفة، واشتهر بها، وكسبت اهتماماً، وما زالت تلفت الأنظار وتستقطب النظر والنقد بين مفكري الحداثة وما بعد الحداثة.

والذي عزّز من القيمة المعرفية لهذه المقولة، هو أن هابرماس توصل إليها أو أعلن عنها بعد دراسته لكبريات النصوص الفلسفية باتجاهاتها المختلفة في منظومات الفكر الأوروبي، من فلاسفة الأنوار، إلى فلاسفة ما بعد الحداثة المعاصرين، من كانت وهيغل إلى فوكو ودريدا. وشرح ذلك في كتابه الأكثر شهرة من بين مؤلفاته، ولعله الأكثر شهرة في حقله أيضاً، وهو كتاب (القول الفلسفي للحداثة) كما في ترجمة المشارقة، أو (الخطاب الفلسفي للحداثة) كما في ترجمة المغاربة. والذي بدأ فيه من مقولة أن الحداثة مشروع لم ينجز، إلى محاولة التوصل لدرب

(*) نشرت هذه المقالة في صحيفة الوطن السعودية، العدد ٢٩٨، السنة الأولى، الثلاثاء ٢٤ تموز (يوليو) ٢٠٠١م

آخر للخروج من فلسفة الذات عبر العقل التواصلي. فالعقل عند هابرماس تتحرك طاقاته في الفاعلية التواصلية، ومن خلال ممارسات اجتماعية. وإن طاقة العقل المتضمنة في الفاعلية التواصلية تتحقق بواسطة حركة الصيرورة في حياة البشر.

التواصل هذا المفهوم السهل والبسيط حوله هابرماس إلى فلسفة شديدة الأهمية، من خلال تأسيسات جوهرية، أعطت هذا المفهوم قيمة معرفية، ووطدت صلته بالفكر الفلسفي، وهو الحقل الذي يضفي أو يضاعف صفة الاعتبار العلمي والأخلاقي للمفاهيم. وهذا يؤكد على إمكانية أن يكون لبعض المفاهيم قيمة معرفية مهمة، لكنها بحاجة لاكتشاف وتأسيس واتصال بأحد الحقول المعرفية. كما يؤكد أيضاً على ضرورة عدم الجمود على بعض المقولات، والاقتصار عليها والتوقف عندها بصورة نهائية، أو بعيدة عن الكشف والتجدد والإبداع. فالفكر الإنساني والعقل البشري مزود بطاقات هائلة لا نستطيع أن نحدد مداها وسعتها وفاعليتها.

ومن المفاهيم الفعالة، أو التي بالإمكان أن تتحول إلى مفهوم فعال، مفهوم التعارف الذي يلتقي مع مفهوم التواصل في نسق معرفي مشترك. فكلاهما يتضمن بناء الجسور والوصول إلى الآخر وتجاوز الذات، أو فلسفة الذات حسب تعبير هابرماس. ويفترقان في نوع التخصص، فالتواصل لأنه يرتبط بحقل المعرفة، أو هكذا حاول هابرماس ربطه، تحددت علاقته بالعقل، فهو تواصل بين العقول، واستنهاض طاقات العقل وتحريكها في علاقة تفاعلية بين الناس.

ويقارب هذا المعنى ما ورد في الحديث النبوي الشريف: «أعقل الناس من جمع عقول الناس إلى عقله»، فالحديث يتضمن دعوة للتواصل الفعال بين عقول الناس. أما التعارف فيرتبط بحقل الاجتماع، فتحددت علاقته بالمجتمع والناس.

من جهة أخرى فإن التعارف يتضمن مفهوم التواصل، فليس هناك تعارف بدون تواصل، لكنه يتجاوزه، بمعنى أن التعارف أوسع وأشمل منه، أما التواصل فقد يكون بتعارف أو بدون تعارف.

والتعارف هو المفهوم الذي حدده القرآن الكريم لشكل العلاقة بين الناس بعد أن توزعوا شعوباً وقبائل، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ علماً بأن القرآن الكريم لم يذكر في كل آياته تسمية (شعوباً وقبائل) إلا في هذه الآية، التي أبرزت مفهوم التعارف وأكدت عليه وأظهرت قيمته وفعاليته، وإطلاقيته وعموميته. فقد جاء في سياق مخاطبة الناس كافة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وبعد تذكيرهم بوحدة الأصل الإنساني ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ وتقرير التنوع الإنساني ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ﴾، التنوع الذي ينبغي أن يكون محكوماً بقاعدة التعارف، والذي هو تعارف بين الجماعات وليس في نطاق الأفراد وحدودهم.

وهذا ما يوصلنا لمفهوم تعارف الحضارات. وهو اصطلاح جديد ما زال بحاجة إلى تأسيسات وتراكمات وبناءات، فكرية ومعرفية

وتاريخية، لكي تتحدد هويته بصورة متجلية، وتتبلور مكوناته الجوهرية، ويصل لدرجة من الإحكام العلمي والاصطلاحي تبرر له شرعية التداول والاستعمال على أوسع نطاق.

وقد طرحت هذا الاصطلاح لأول مرة في صيف ١٩٩٧م، ولقي اهتماماً وتقبلاً في بعض الأوساط الأكاديمية، فقد تحدث عنه الدكتور سيف الدين عبد الفتاح أستاذ العلوم السياسية بجامعة القاهرة، في ورقة تقدم بها لندوة (الإسلام والعولمة) عقدت بجامعة القاهرة، كلية العلوم، في أيار (مايو) ٢٠٠٠م.

وتبنته الدكتورة نادية مصطفى أستاذة العلاقات الدولية في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، ورجحته على مفهوم حوار الحضارات، واعتبرت أنه يعبر عن المنظور الإسلامي في العلاقات بين الحضارات. وذلك في ورقة بحثية تقدمت بها لندوة (كيف ندخل سنة حوار الحضارات؟) التي عقدت بدمشق، في تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٠٠م، وجرى الحديث حوله باهتمام بين نخبة من المفكرين والأكاديميين العرب في هذه الندوة، وكنت حاضراً فيها ومشاركاً في مناقشاتها.

وتطرق إليه أيضا بعض الكتاب والمثقفين في مقالات نشروها في صحافة عربية.

وإذا تأملنا هذا الاصطلاح بطريقة معرفية، فبالإمكان أن نكتشف قيمته الدلالية، التي منها:

١- الخروج من الإشكالية الثنائية التي كرست الطابع الجدلي والاحتجاجي بين مقولتي حوار الحضارات وصدام الحضارات. الإشكالية التي قد تضيّق عمليات الفهم وتورث السجال.

٢- تجاوز إشكالية الجمود والتوقف، أو الاقتصار على تلك المقولتين فحسب، إلى نوع من التجدد والكشف من خلال مقولة جديدة ومختلفة.

٣- إن مفهوم تعارف الحضارات هو أوسع وأشمل وأعمق من مفهوم حوار الحضارات، وهو ينطلق من أرضية تكوين المعرفة والتأسيس عليها. فالتعارف هو الذي يحدد شكل العلاقات وحدودها ومستوياتها وآفاق تطوّرها.

٤- إن المشكلة بين الحضارات ليس في عدم الحوار فيما بينها، وإنما في عدم التعارف، والانقطاع عن تكوين هذه المعرفة، وسيادة الجهل أو الفهم المنقوص، أو الصورة النمطية والسطحية في المعرفة. لذلك فإن كل حضارة غالباً ما تصور مشكلاتها مع الحضارات الأخرى على أساس عدم المعرفة السليمة أو الصحيحة بها.

٥- من الغايات الأساسية لحوار الحضارات الوصول إلى التعارف، أو إلى قدر معقول منه، أو تصحيح الصورة وإزالة عدم الثقة.. إلى غير ذلك من معاني ودلالات تكشف أن التعارف يمثل قيمة أكبر من الحوار.

حوار حول أطروحة تعارف الحضارات(*)

أجرى الحوار:

الأستاذ حسن آل حمادة - القطيف

أطلق الكاتب الأمريكي هنتنغتون مقولته الشهيرة (صدام الحضارات) عام ١٩٩٣م، وطورها عام ١٩٩٦م، مما دفع الكثير من المفكرين والمثقفين للتأكيد على مقولة (حوار الحضارات)، وهي الرؤية التي تبناها في وقت مبكر المفكر الفرنسي المسلم روجيه غارودي، وأكد عليها السيد محمد خاتمي في خطابه الشهير الذي ألقاه سنة ١٩٩٨م، في الجمعية العامة للأمم المتحدة، مما حدا بها لاختيار سنة ٢٠٠١م سنة للحوار بين الحضارات، وأصبحت هذه المقولة المقابل الأبرز لمصطلح الصدام، وبين هاتين المقولتين هناك نظرية ثالثة تعرف بـ(تعارف الحضارات)، وهي أطروحة أطلقها المفكر الإسلامي زكي الميلاد، في رؤية مغايرة للنظريتين السابقتين، مستوحاة - كما لا يخفى - من القرآن الكريم.

وقد بدأ التعريف بهذه النظرية في ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م، ضمن

(*) نشر هذه الحوار في مجلة الحج والعمرة، تصدر عن وزارة الحج في السعودية، العدد الثالث، ربيع الأول ١٤٢٤هـ، أيار (مايو) ٢٠٠٣م

العدد (١٦) من مجلة (الكلمة) الفصلية التي يرأس تحريرها، وأتبعها فيما بعد بدراسات ومقالات في الصحف والمجلات، وأوراق ومداخلات في الندوات والمؤتمرات، وجميعها - على ما يبدو - كانت تتماشى مع الدراسة الأولى.

كما نشر دراستين أخريين في المجلة نفسها بعنوان (من أجل بناء نظرية لحوار الحضارات) في العدد (٣٥) ربيع ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م، و(من حوار الحضارات إلى تعارف الحضارات)، في العدد (٣٦) ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.. فما الذي يميز هذه الأطروحة؟.

يجيب المفكر الإسلامي زكي الميلاد بأن هذه النظريات أو المقولات الثلاث: (صدام الحضارات، وحوار الحضارات، وتعارف الحضارات)، إنما تتعدد وتختلف بحسب اختلاف أنساقها المعرفية وتعددها. فكل واحدة منها لها طبيعتها النسقية المتميزة بها، والمكوّنة لعناصرها ومكوناتها الذاتية وملامحها الكلية.

فصدام الحضارات: هي نظرية تفسيرية أو هكذا أراد أن يصورها هنتنغتون لكي يدافع عنها، ويقنع بها، ويقطع على الآخرين شكوكهم وهواجسهم واحتجاجاتهم. فقد أراد هنتنغتون - كما يدعي- أن يقدم نظرية كلية يربط من خلالها، ويفسر بواسطتها الأحداث والوقائع والنزاعات المتناثرة والمفككة والمتفرقة بين جغرافيات العالم، والتي لها طبيعة النزاعات والصدامات والحروب المشتعلة والمتفجرة منذ زمن طويل، وترجع لأسباب وخلفيات دينية وعقائدية وثقافية، كالنزاع

الطويل بين الهند وباكستان؛ ابتداء من انقسام باكستان الإسلامية عن الهند الهندوسية، وصولاً إلى إقليم كشمير. أو النزاع بين تركيا واليونان حول جزيرة قبرص المقسمة دينياً بين شطرين؛ إسلامي يدين بالولاء لتركيا في الشمال، ومسيحي أرثوذكسي يدين بالولاء لليونان في الجنوب. أو بانفجار الصراع في يوغسلافيا وانقسامها دينياً بين سكان البوسنة المسلمين، وبين الصرب المسيحيين الأرثوذكس والكروات المسيحيين الكاثوليك. وهكذا النزاع في إيرلندا بين الأقلية البروتستانتية والأغلبية الكاثوليكية. بالإضافة إلى الصراع العربي الإسرائيلي على فلسطين. إلى جانب نزاعات وصدامات أخرى في قارات مختلفة.

لذلك فإن هذه النظرية تنتمي إلى المجال السياسي وتتحدد به. وإن هنتنغتون تعامل مع الثقافة أو الحضارة من خلال معايير علم السياسة وتقنياته ومنهجياته، وهو مجال اختصاصه الأكاديمي والمهني والوظيفي. والمشكلة في هذه النظرية أنها لم تقف عند حدود الأبعاد التفسيرية كما أراد أن يصور ذلك هنتنغتون، وإنما تجاوزت ذلك إلى أبعاد إنشائية وتحريضية، حيث كانت تبدو دائماً وكأنها تحذر الغرب من احتمال صدام مع بقية الحضارات غير الأوروبية، وتحرضه من ثمَّ على ضرورة أن يحافظ على تفوقه وأن يكون في مستوى مواجهة مثل هذا الاحتمال، لكيلا يفقد حضارته أو تفوقه على مستوى العالم. وهذه الخلفيات هي التي أثارت حفيظة العالم ومخاوف المجموعات

البشرية، وحرضت على سجال هو الأوسع من نوعه في تاريخ العالم المعاصر.

أما حوار الحضارات: فهو نظرية أراد منها غارودي أن تكون خطاباً نقدياً وعلاجياً لأزمة الغرب الحضارية - كما يصفها - ولأنماط علاقاته بالعالم والحضارات غير الأوروبية. كما أراد منها أيضاً أن تكون خطاباً موجهاً إلى الغرب بصورة أساسية. لذلك فهي تنتمي إلى النظريات الغربية التي تنطلق من نقد التجربة الغربية والفكر الغربي وتصنف فيها. ومن حيث نسقها المعرفي فهي تنتمي إلى المجال الثقافي وتتحدد به لأنها تركز على الأبعاد الثقافية والفكرية والأخلاقية.

وأما حوار الحضارات في رؤية السيد محمد خاتمي فقد جاءت استجابة لبعض المعطيات والضرورات السياسية في الدرجة الأولى، ومن أجل أن تكون خطاباً نقدياً بديلاً لخطاب صدام الحضارات. وقد ظلت تتحدد في هذا النطاق ولم تتحول إلى نظرية واضحة ومتماسكة، وما زال العالم العربي والإسلامي يفتقر إلى نظرية تعبر عن رؤيته في كيفية التقدم والتحضر، وعن أنماط علاقاته بالعالم.

فإذا اعتبرنا صدام الحضارات بوصفها نظرية تفسيرية، وحوار الحضارات بوصفها نظرية نقدية أو علاجية، فإن تعارف الحضارات هي نظرية تأسيسية، بمعنى أن القاعدة فيها هي التأسيس وليس الإخبار، فقد جاءت لإنشاء شكل العلاقات المفترض بين الناس

كافة حينما انقسموا إلى شعوب وقبائل كما نصت الآية الكريمة التي أطلق عليها بآية التعارف، في سورة الحجرات: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ٤٩/١٣].

فالتعارف هو المفهوم العام .والكلي والجامع والشامل الذي اختارته هذه الآية في تحديد النمط العام لعلاقات الناس كافة مهما تعددت وتنوعت أعراقهم وسلالاتهم، لغاتهم وألسنتهم، دياناتهم ومذاهبهم، تاريخهم وجغرافياتهم. ولأن خطاب الآية إلى الناس كافة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، ولأن الحديث عن شعوب وقبائل وليس عن أفراد، أي إنه حديث عن أمم ومجتمعات وتجمعات، فقد جاز لنا تطبيق هذا المفهوم على مستوى الحضارات، ومن هنا تحدد مفهوم تعارف الحضارات. فهي نظرية مستنبطة من القرآن الكريم، وهو الكتاب الذي بإمكانه تحديد العناوين أو المفاهيم الكلية والعامة والجامعة والشاملة وصياغتها، إذا جاءت في سياق يقتضي هذا الشأن - كما هو الحال في آية التعارف - علماً بأن جملة ﴿شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾لم ترد في القرآن الكريم إلا في هذه الآية. لهذا فإن تعارف الحضارات فيها من المقومات والركائز والشرائط ما يدفعنا لأن نطلق عليه مصطلح (النظرية).

- هل أردت أن تجعل من هذه النظرية (تعارف الحضارات)،

مرحلة وسيطة وانتقالية، للوصول إلى حوار بين الحضارات؛ ليتجنب العالم - من ثمَّ - الصدام بينها؟

نظرية (تعارف الحضارات) هي أكثر من كونها مرحلة وسيطة أو انتقالية، فهي وسيطة بمعنى أن على أساسها تتحدد مستويات العلاقات ودرجاتها واتجاهاتها ونظام التواصلات بين الناس، وبين المجموعات البشرية، وبين الحضارات، وهكذا أنماط هذه العلاقات والتواصلات وأشكالها وصورها. فالتعارف هو الذي يؤسس لأشكال الحوار ومستوياته ودرجاته، وإلى أشكال ومستويات ودرجات أخرى من العلاقات والتواصلات أيضاً، كالتعاون والتحالف والتبادل والإنماء والاندماج والتكامل.. إلى غير ذلك من صور العلاقات وأشكالها وأنماطها. وبقدر ما يتطور التعارف تتطور تلك الصور والأنماط من العلاقات والتواصلات. وهذا يعني أن التعارف يسبق الحوار ويؤسس له أرضياته ومناخاته، ويشكل له بواعثه وحوافزه، ويطور له صوره وأنماطه، ويرتقي بدرجاته ومستوياته، لهذا فإن التعارف هو القاعدة وليس الحوار.

كما أن التعارف له من الفاعلية ما بإمكانه أن يجنب الحضارات مصير الصدام، لأن الناس - كما قال الإمام علي عليه السلام - أعداء ما جهلوا. وفي هذا المجال نستحضر من التاريخ الإسلامي الوسيط تجربة التحول العظيم الذي حصل عند المغول الذين بدؤوا بغزو كان من نتائجه تدمير الحضارة الإسلامية والإطاحة بها،

وممارسة أعلى درجات البربرية وهو السلوك الذي كان يتصف بالقسوة والعنف والتخريب. ولكنهم وبعد زمن من السيطرة والتواجد في المنطقة الإسلامية وبين المسلمين، انتهوا إلى اعتناق الإسلام. والتعارف هو الذي أحدث هذا المستوى من التحول في ذهنيات المغول. فالجهل قادهم إلى الحرب والتدمير، والتعارف قادهم إلى السلم والإيمان.

وهناك أيضاً نموذج آخر؛ هو التحول الذي حصل عند الأوروبيين بعد الحروب الصليبية التي قادتهم إلى قناعة جديدة، هي ضرورة التعرف على الحضارة الإسلامية وعلى الشرق عموماً، الذي كان أكثر تقدماً وتحضراً ومدنية من الغرب؛ القناعة التي حرضت الغرب على أن ينهض بأكبر وأعظم جهد بحثي في دراسة الإسلام والحضارة والشرق، وهو الجهد الذي عرف بحركة الاستشراق، وكان من المفترض لهذا الجهد أن يقود أوروبة إلى نوع من التفاهم وبناء علاقات جديدة بينها وبين الإسلام والعالم الإسلامي، لكن الذي حصل هو عكس الاتجاه تماماً، لأن المعرفة التي نهض بها الغرب ارتبطت بدوافع وخلفيات ومصالح استعمارية وإمبريالية، وهذا يعني أن التعارف لم يكن أخلاقياً، وإنما كان توظيفياً ويخدم مصالح استعمارية.

- أسست لنظرية تعارف الحضارات صيف ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ضمن العدد (١٦) من مجلة (الكلمة) الفصلية التي ترأس تحريرها،

وأتبعتها فيما بعد بدراسات ومقالات في الصحف والمجلات، وأوراق ومداخلات في الندوات والمؤتمرات، وجميعها - على ما يبدو- كانت تتماشى مع الدراسة الأولى. فقد قرأنا لك - على سبيل المثال - دراستين أخريين في المجلة المذكورة نفسها، الأولى منها بعنوان: «من أجل بناء نظرية لحوار الحضارات)، في العدد (٣٥) ربيع ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، والثانية بعنوان: (من حوار الحضارات إلى تعارف الحضارات)، في العدد (٣٦) صيف ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م. والسؤال هنا: هل الدراسات الأخرى كتبت بدافع ترسيخ أطروحة (تعارف الحضارات)؟ أم أنها تضمنت محاولات منكم لإعادة النظر فيها لمعرفة مدى تماسكها كنظرية بديلة؟.

لقد جاءت هذه الدراسات والكتابات والمشاركات في سياق التأكيد على مقولة تعارف الحضارات من جهة، والعناية بفحص مقولة حوار الحضارات من جهة أخرى، وقد وجدت بعد فحص مقولة حوار الحضارات بأن هذه المقولة تفتقد إلى الدقة والوضوح والإحكام والتماسك، وأول ما يعترض هذه المقولة هو: هل إن الحضارات تتحاور فعلاً؟ وكيف نتصور هذا التحاور ونبرهن عليه؟ علماً بأن الدارسين والباحثين والمؤرخين في ميادين التاريخ والاجتماع والأنثروبولوجيا والحضارة والثقافة، الذين درسوا صور العلاقات بين الحضارات وأشكالها وأنماطها لم يتحدثوا عن ظاهرة الحوار بين الحضارات، وإنما تحدثوا عن ظواهر أخرى

كالتفاعل والتعاقب والتبادل والاحتكاك، إلى جانب الصراع والصدام. وقد شرحوا هذه الظواهر وعرّفوا بها وبصورها وأشكالها وأنماطها. ولعل في أكثر الأحيان يكون المقصود من حوار الحضارات تلك الظواهر المذكورة، لكن هذا لا يعفي من سلب الدقة عن هذه المقولة.

وفي الأدبيات العربية المعاصرة هناك لفتات متزايدة ومقنعة لحد ما في نقد هذه المقولة بعد أن دخلت في دائرة التداول والاهتمام. وهناك من يصنفها - مثل الدكتور الجابري - بأنها مفعمة بالغموض والالتباس، وحسب رأيه أن الذين يطرحون هذه المقولة واقفون عند منطوقها حيث ينطوي موقفهم على نوع من الغفلة، لأن الحوار بين الحضارات قد يكون عفوياً تلقائياً نتيجة الاحتكاك الطبيعي، فيكون عبارة عن تبادل التأثير من أخذ وعطاء بفعل الصيرورة التاريخية، وهذا النوع من تلاقح الحضارات لا يحتاج إلى دعوة ولا يكون بتخطيط مسبق، بل هو عملية تاريخية تلقائية.

ومن جهة أخرى نشير في نقد هذه المقولة إلى أنها غير ممكنة فعلاً من جهة التطبيق، لأن الغرب الذي يفترض فيه أن يكون طرفاً أساسياً في أي حوار على مستوى الحضارات، ليس على استعداد لأن ينخرط في هذا الحوار مع حضارات يعتبرها غير متكافئة معه، وهو الذي يمثل الحضارة الغالبة والمسيطرة على العالم والمتحكمة بثرواته. كما أن تاريخ علاقات الغرب بالحضارات الأخرى قد لا يشجعه

على هذا الحوار، وهو الذي دخل في صدام وتدمير مع بقية الحضارات الأخرى وسلب منها ثرواتها وأوصلها إلى درجة الإفقار والتخلف.

يضاف إلى ذلك أنني وجدت أننا على مستوى العالم العربي والإسلامي لا نمتلك نظرية واضحة حول حوار الحضارات، ولا نفهمها أو نتعامل معها إلا بطريقة تغلب عليها العمومية والإطلاقية التي تفتقر إلى التحديد والتقييد والتبيين. لكنها مع ذلك تبقى من المقولات التي يمكن اعتبارها بأنها تتضمن دعوة أخلاقية نبيلة.

وهذا ما دفعني إلى التمسك بمقولة تعارف الحضارات التي يمكن فهمها وتحديدها والبرهنة عليها، وحتى الاتفاق عليها.

- بعد أحداث ١١ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١م حدثت عمليات صدام جعلت العالم وكأنه يعيش عملياً صدام الحضارات، وبعد هذه الأساطيل المنتشرة في الخليج - بدرجة أولى - كيف تستشرفون مستقبل نظرية تعارف الحضارات؟.

بعد هذه الأحداث، تنامت في المجتمعات الغربية ظاهرة لفتت إليها الكثيرين في داخل هذه المجتمعات، وفي خارجها، وهي ظاهرة تزايد الاهتمام بالاطلاع والتعرف والمساءلة حول الإسلام من جديد واتساعه، لدرجة أصبحت المؤلفات والكتابات في هذا المجال هي الأكثر انتشاراً وتداولاً وطلباً، وبدأت المراكز والمعاهد والجمعيات

الإسلامية هناك تستقبل اتصالات لم تشهد مثيلاً لها من قبل، وتدور هذه الاتصالات حول الإسلام والقضايا الإسلامية والمجتمعات الإسلامية. ووصل الحال ببعض المعاهد والكليات والجامعات الأوروبية والأمريكية أنها وجدت من الضروري تخصيص برامج دراسية حول الإسلام تستجيب لحاجات طلابها في تكوين المعرفة بالإسلام والثقافة الإسلامية، ويمكن وصف هذه الظواهر بأنها تأتي في سياق تأكيد الحاجة إلى تعارف الحضارات.

من جهة أخرى فإن هذه الأحداث كشفت عن اختلالات عميقة في طبيعة الرؤية المتشكلة حول العالم، عند بعض الفئات والجماعات الإسلامية التي تحاول أن تصادم العالم وتنقطع عنه وترفض الاندماج فيه، وتعتبر نفسها في حالة حرب ومواجهة مع الذين يختلفون معها في الدين والعقيدة. وهذه الحالة في جوهرها تعبر عن أزمة فكرية ناشئة من عدم القدرة على تكوين المعرفة بالآخر المختلف. في حين أن الذي ينبغي إعادة النظر فيه هو أن حقيقة مشكلتنا نحن في العالم الإسلامي هي مع تخلفنا بالدرجة الأولى وليس مع الغرب أو الحضارات الأخرى، ومن ثمَّ فإن القضية هي كيف نتغلب على هذا التخلف ونسلك طريق التحضر، ومتى ما قطعنا هذه الخطوات أو بعضها سوف يتغير موقعنا في العالم، كما سوف تتغير نظرة العالم والحضارات الأخرى إلينا. لذلك فإننا ندرك - وبعمق - حاجتنا لأن ننهض بمشروع يكون بمستوى التعارف مع الحضارات، على قاعدة

أن نكتشف لأنفسنا الطريق الذي نستقل به في سعينا نحو التمدن والتحضر.

- برأيك.. ما هي المتطلبات اللازمة لنجاح فكرة تعارف الحضارات؟ وما هي شروط نجاحها على أرض الواقع بعيداً عن عالم الأمنيات؟

كان يفترض في أحداث ١١ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١م، أن تهيئ اللحظة التاريخية لانطلاقة فكرة أو نظرية حول تعارف الحضارات، لكي يتحصن العالم من النزاعات والصدامات والحروب، ولكيلا تتكرر مثل هذه الأحداث مرة أخرى في أي مكان من العالم. وهذا يتطلب صياغة رؤية جديدة إلى العالم يشترك الجميع بكل تنوعاتهم الدينية والثقافية، العرقية والقومية، اللغوية واللسانية، في صياغتها وبلورتها وتكاملها، وفي التضامن حولها، والدفاع عنها؛ الرؤية التي تنطلق من مراجعة شاملة، ونقد جذري لطبيعة النظام العالمي السائد، بكل مكوناته وعناصره وشرائطه، ويصل إلى جوهره وحقيقته، لأن هذا النظام العالمي يفتقر إلى العدالة والمساواة، ويكرس الظلم والفقر والتبعية، ويعمق الفروقات الاجتماعية والطبقية بكافة صورها وأنماطها، ولا يضمن كرامة الجميع ولا يحفظ حقوق الجميع. وهذه الوضعيات هي التي تحرض على انتشار ظواهر العنف، وتسبب النزاعات، وتشعل الحروب، وهي التي تجعل مثل أحداث أيلول (سبتمبر) ممكنة الحدوث. والأفدح من ذلك محاولة الغرب في أن

يحتكر الحضارة والمدنية لنفسه، ويرسخ في العالم الانقسام بين أمم متحضرة وأمم متخلفة، هذا الاختلال هو ما ينبغي أن يتغير.

وفكرة تعارف الحضارات تأتي في سياق نقد هذا الاختلال والعمل على إنهاض الحضارات المختلفة وبنائها وعمرانها، لأنها - أي فكرة تعارف الحضارات - تنطلق من نزعة إنسانية عميقة هي التأكيد على وحدة الأصل الإنساني ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾، والغاية من تأكيد وحدة الأصل الإنساني في هذه الآية هو أن ينظر الناس من أمم ومجتمعات وحضارات إلى أنفسهم كما لو أنهم أسرة إنسانية واحدة، لكنها متشعبة على مساحات هذه الأرض. وهذه النظرة الإنسانية والأخلاقية تستدعي أن تنظم قواعد السلوك على المستوى الدولي.

يضاف إلى ذلك أن هناك اعتقاداً بدأ يتأكد بين الحضارات، هو أن هذه الحضارات لا تعرف بعضها بعضاً كما ينبغي، وتفتقر إلى جسور التواصل في عالم تطورت فيه تقنيات الاتصال وأنظمة المواصلات التي باتت تربط العالم، وتجعل منه أشبه ما يكون بقرية صغيرة. لهذا يمكن الاستفادة من العولمة في تطوير فكرة التعارف بين الحضارات وتعميمها، وتقليص المسافات التي تفصل بينها، وإزالة كافة صور الجهل أو عدم الفهم أو غير ذلك فيما بين هذه الحضارات.

- عملت وسائل الإعلام الكبرى على تضخيم نظرية (صدام

الحضارات)؛ إلاَّ أنها مع ذلك قد استقبلت بتشاؤم كبير، لأنها ركزت على ما يفرق الحضارات لا على ما يجمعها.. بالمقابل - ومع الفارق في الإمكانيات والقدرات - كيف كان تفاعل النخب المثقفة مع نظرية (تعارف الحضارات) التي تتبنونها وتبشرون بها، علماً بأنها نظرية مستوحاة من القرآن الكريم؟.

فكرة تعارف الحضارات ما زالت من الأفكار الجديدة، لكنها من الأفكار الواعدة، التي بإمكانها أن يكون لها قدر من الإلهام لو تعرف عليها العالم بصورة معمقة وناضجة، وأتيحت لها فرص التداول والانتشار وإمكانياته في نطاقات عالمية واسعة.

وفي المدار الذي تحركت فيه هذه المقولة ووصلت إليه فإنها لقيت تقبلاً واهتماماً، حيث تحدث عنها وتطرق إليها بعض الكتاب والأكاديميين من دول عربية مختلفة، وفي منابر ومناسبات متعددة. فقد كتب عنها الأستاذ إدريس هاني من المغرب في مجلة الكلمة، والدكتور أحمد البغدادي أستاذ العلوم السياسية بجامعة الكويت في صحيفة الاتحاد الإماراتية، وتطرق إليها الأستاذ تركي علي الربيعو من سوريا في صحيفة الحياة اللندنية، والأستاذ عبد الواحد علواني من سوريا في مجلة الكلمة، والدكتور رسول محمد رسول من العراق في صحيفة الزمان اللندنية، والدكتور سمير عبد الحميد إبراهيم أستاذ اللغات الشرقية وآدابها بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - وهو من مصر - في مجلة أحوال المعرفة السعودية، وقدم حولها الدكتور سيف

الدين عبد الفتاح أستاذ العلوم السياسية بجامعة القاهرة ورقة لندوة عقدت بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة، كما تحدثت عنها وبتبنٍّ واهتمام الدكتورة نادية مصطفى أستاذة العلاقات الدولية والمشرفة على برنامج حوار الحضارات بجامعة القاهرة في ورقة تقدمت بها لندوة عقدت بدمشق، وقد فتحت هذه الورقة نقاشاً واسعاً حول هذا المفهوم بين المشاركين في هذه الندوة. وما زالت هذه المقولة تستقطب الاهتمام، ومن يقترب منها، ويتعرف عليها يدرك قيمتها وحيويتها، ودقتها أيضاً.

- في كتابكم الموسوم بـ(المسألة الحضارية.. كيف نبتكر مستقبلنا في عالم متغير؟)، قلتم ص ٩٨: «لا زلنا بحاجة إلى استكشاف أعمق للجوانب الحضارية الشاملة من فكرنا وتراثنا وتاريخنا، الذي يختزل لنا الشيء الكثير، وينتظر من يستكشفه».. فعلى من تقع مسؤولية الاستكشاف هذه؟ وهل ترون بأن الأمة - في هذه الفترة الزمنية - بدأت تبدع لنفسها أفكارها وتثق بها وتعلي من شأنها؟ أم أنها لا تزال مسحورة بما تستورده من الغرب؟

إننا ما زلنا فعلاً بحاجة إلى استكشاف أعمق للجوانب الحضارية الشاملة في فكرنا وتراثنا وتاريخنا، وسوف أبرهن وأوثق هذه الحقيقة بشاهدين معاصرين.

الشاهد الأول: هو حينما دعي الدكتور محمد أركون للمشاركة في برنامج أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية في باريس سنة ١٩٨٩م،

للحديث عن الأصول الإسلامية لحقوق الإنسان. وبعد أن أنهى محاضرته، انبرى له المستشرق الفرنسي أرنا لديز الذي وصفه هاشم صالح مترجم كتابات أركون إلى العربية، بأنه كان المختص الوحيد في الإسلاميات من بين المشاركين في استماع محاضرة أركون، وقال موجهاً كلامه لأركون: سأدافع ولو للحظة عن كل أولئك الفقهاء والعلماء والمفسرين الذين طالما درستهم وعاشرت نصوصهم. سوف أذكّر محمد أركون بأن هؤلاء الفقهاء كانوا نشطين جداً، وأنهم حركوا النصوص القرآنية، وأنعشوها بتفاسيرهم إلى درجة يصعب علينا اليوم، حتى باسم العلوم الإنسانية العزيزة جداً عليك يا سيدي أركون، أن نجد فيها شيئاً آخر جديداً غير الذي وجدوه.

والشاهد الثاني: هو ما تحدث به الدكتور زكي نجيب محمود عن نفسه بصدق ووضوح في مقدمة كتابه (تجديد الفكر العربي)، حيث قال: بدأت بتعصب شديد لإجابة تقول إنه لا أمل في حياة فكرية معاصرة إلا إذا بترنا التراث بتراً، وعشنا مع من يعيشون في عصرنا علماً وحضارة ووجهة نظر إلى الإنسان والعالم، بل إنني تمنيت عندئذ أن نأكل كما يأكلون، ونجد كما يجدون، ونلعب كما يلعبون، ونكتب من اليسار كما يكتبون. على ظن مني آنئذ أن الحضارة وحدة لا تتجزأ، فإما أن نتقبلها من أصحابها أبناء أوروبة وأمريكا، وإما أن نرفضها، وليس في الأمر خيار بحيث ننتقي جانباً ونترك جانباً، كما دعا إلى ذلك الداعون إلى الاعتدال. بدأت بتعصب شديد لهذه

الإجابة السهلة، وربما كان دافعي الخبئ إليها هو إلمامي بشيء من ثقافة أوروبة وأمريكا، وجهلي بالتراث العربي جهلاً كاد أن يكون تاماً، والناس - كما قيل بحق - أعداء ما جهلوا.

وهناك شواهد كثيرة تؤكد على حقيقة أننا لم ننهض باستكشاف فكرنا وتراثنا وتاريخنا من خلال حفريات معرفية مكثفة ومعمقة، وبالاستفادة من منهجيات العلوم الإنسانية والاجتماعية. والقاعدة التي ينبغي أن ننطلق منها هي أن نهضة أية أمة وتقدمها وتحضرها لا يتحقق إلا من خلال الانتظام في تراثها وتاريخها وثقافتها، وليس بالخروج على ذلك التراث والتاريخ والانقطاع عنهما أو إقصائهما.

- تعارف الحضارات كنظرية قرآنية، أليس من المفترض أن تلاقي -منك شخصياً- مزيداً من الاهتمام لتطويرها والدفاع عنها والتأكيد عليها، وبالتحديد في كتابٍ مستقل، عسى أن تجد لها آذاناً واعية؟.

هذه المقولة كانت بحاجة أولاً إلى اختبار لقياس وجهات النظر حولها، واكتشاف قيمتها المعرفية، ومدى تقبلها والاهتمام بها والتفاعل معها، تمهيداً لتطويرها وتنضيجها، وتحضيرها في وقت لاحق في كتاب، هو حالياً في طور الإعداد، وسوف يضم مشاركات

مستخلص

يقــدم هذا الكتاب تعريفاً لفكرة تعارف الحضارات المستمدة أصولها من لفضاء المعرفي الإسلامي، والمحددة في مجالات العلاقات بين الحضارات.

يـبين المشــاركون في الكتاب أن مفهوم تعارف الحضارات قد تجاوز بناء المفهوم، ودخل حيِّز التداول، وبات معروفاً في الدراسات الحضارية.

عــالج المشاركون الموضوع بدءاً بالفكرة نفسها، فوضحوا الفرق بين حوار الحضارات وتعارف الحضارات، وتحدثوا عن أزمة الحداثة وبؤس التناقض الذي تعــاني مــنه الحضارة، وتوقفوا عند تصورات المستشرقين للموضوع، وربطوه بالمتغيرات العالمية الجديدة.

عــلى أن الهدف من الدراسة التي قدمها المشاركون يرمي إلى توسيع دائرة الفهــم لعــالم الحضارات، والسعي لاكتشاف آفاقٍ جديدةٍ، تساهم في تجديد العلاقــات بين الحضارات، وتقوية أواصر التواصل بينها، والتأكيد على ضرورة بناء العلاقات على أسس معرفية مشتركة، ومدِّ جسور التعارف، وإزالة الصورة النمطية عند كل طرفٍ، والتخلص من الرواسب الفكرية المتراكمة عبر التاريخ لخلــق جــو إيجــابي فعال مبني على الاحترام المتبادل والتجاوز البناء لتأسيس حضارةٍ إنسانيةٍ جامعة.

Abstract

This book introduces a definition of the view of The Mutual Acquaintance of Civilizations which derives its roots from the Islamic epistemological capacity and has its limits in the fields of the relations among civilizations.

The writers who have participated in the book elucidate that the concept of the mutual acquaintance of civilizations has exceeded the limits of being a mere concept and entered the stage of practicability so that it has become realistically known in civilizational studies.

The participants handle the topic making the idea itself as their starting point, so they differentiate between dialogue and mutual acquaintance among civilizations, discuss the crises of modernity and the wretched contrast that the present civilization suffers from and pause at how orientalists perceive the topic. Accordingly, they relate it to the new global changes.

The main goal of the study that the participants bear in mind is to broaden the range of understanding the world of civilizations and endeavor to discover new horizons that might contribute to reconstructing the relations among civilizations, enhancing the communication among them, certifying the necessity of establishing relations on the mutual epistemological bases, stretching bridges of acquaintance, removing the typical. picture each side assimilates and disposing of the accumulated intellectual remnants throughout history which result in creating positive and active atmosphere based on mutual respect, constructive tolerance for founding a comprehensive human civilization.

دار الفكر

آفاق معرفة متجددة

مالك بن نبي

مشروع حضاري فعال

٢٠٠٦

• **أسست** عام ١٩٥٧م (١٣٧٦هـ).

• **رسالتها:**

- تزويد المجتمع بفكر يضيء له طريق مستقبل أفضل.
- كسر احتكارات المعرفة، وترسيخ ثقافة الحوار.
- تغذية شعلة الفكر بوقود التجديد المستمر.
- مدّ الجسور المباشرة مع القارئ لتحقيق التفاعل الثقافي.
- احترام حقوق الملكية الفكرية، والدعوة إلى احترامها.

• **منهاجها:**

- تنطلق من التراث جذوراً تؤسس عليها، وتبني فوقها دون أن تقف عندها، وتطوف حولها.
- تختار منشوراتها بمعايير الإبداع، والعلم، والحاجة، والمستقبل، وتنبذ التقليد والتكرار وما فات أوانه.
- تعتني بثقافة الكبار، وترنو لتأهيل الصغار لبناء مجتمع قارئ.
- تخضع جميع أعمالها لتنقيح علمي وتربوي ولغوي وفق دليل ومنهج خاص بها.
- تعدّ خططها وبرامجها للنشر، وتعلن عنها: شهرياً، وفصلياً، وسنوياً، ولآماد أطول.
- تستعين بنخبة من المفكرين إضافة إلى أجهزتها الخاصة للتحرير، والأبحاث، والترجمة.

• **خدماتها ونشاطاتها:**

- نادي القارئ النهم (الأول من نوعه في الوطن العربي)
- تمنح سنوياً جوائزها للإبداع والنقد الأدبي، وتكرم مؤلفيها وقراءها.
- ريادة في مجال النشر الألكتروني
- أول موقع متجدد بالعربية لناشرٍ عربيٍّ على الإنترنت: **www.fikr.com**
- إسهام فعّال في موقع (فرات) لتجارة الكتب والبرامج الألكترونية: **www.furat.com**
- موقع تفاعلي رائد للأطفال: عالم زمزم: **www.zamzamworld.com**
- **إشراف مباشر على مواقع:**

الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: **www.bouti.com**

الدكتور وهبة الزحيلي: **www.zuhayli.com**

اللجنة العربية لحماية الملكية الفكرية: **www.arabpip.com**

• **حازت على جائزة أفضل ناشر عربي للعام ٢٠٠٢، من الهيئة المصرية العامة للكتاب.**

• **منشوراتها:** تجاوزت حتى عام ٢٠٠٥ (١٩٠٠) عنواناً، تغطي سائر فروع المعرفة.

دار الفكر
للطباعة والتوزيع والنشر

دمشق - سورية - ص.ب: ٩٦٢
هاتف: ٢٢١١١٦٦ - فاكس: ٢٢٣٩٧١٦
e-mail: fikr@fikr.com - http://www.fikr.com

زكي عبد الله الميلاد

- متخصص في الدراسات الإسلامية.
- من مواليد القطيف في السعودية ١٩٦٥.
- دكتوراه من الاتحاد العالمي للمؤلفين باللغة العربية.
- رئيس تحرير مجلة الكلمة/بيروت.
- مستشار أكاديمي في المعهد العالمي للفكر الإسلامي/أمريكا.
- مستشار لعدد من الدوريات المعنية بقضايا الفكر.

له عدد من الأعمال جاوزت ١٥ كتاباً غير الكتب التي شارك فيها، والمقالات الهامة بعضها بالفارسية والإنكليزية.

ونشط في عديد من الندوات والمؤتمرات والحلقات الدراسية والفكرية الأكاديمية العربية والدولية.

آفاق معرفة متجددة

ALLIANCE OF CIVILIZATIONS

Ta'āruf al-Ḥaḍārāt
prep.: Zakī Mīlād

هل تنتقل الحضارات من الحوار فيما بينها إلى التعارف الإيجابي المتكامل؟

وما فكرة تعارف الحضارات التي تستمد أصولها من المخزون الثقافي الإسلامي؟

وكيف يمكن لهذه الفكرة أن تدخل حيّز التداول بعد أن اتسع الحوار ومفهومه في الشرق والغرب؟

هذا الكتاب يعالج هذا الموضوع بدءاً بالفكرة نفسها، ويبين الفرق بين الحوار الحضاري والتعارف الحضاري، ويبحث كذلك في أزمة الحداثة وبؤس التناقض الذي تعاني منه الحضارة الإنسانية الحالية.

ويرمي الكتاب من خلال أقلام المشاركين فيه إلى توسيع دائرة الفهم ل... ف
آفاق جديدة لترسيخ ... ى
نحو من الاحترام المتباد...

فرات
www.furat.com
موقع عربي رائد لتجارة الكتب والبرامج الالكترونية
SROUR ALWANI 2005